

الفصل الثاني

« قواعد الفصاحة »

سنحاول إن شاء الله أن تتبع قواعد الفصاحة متخذين في ذلك ما صارت إليه عند القزويني وشراح التلخيص — المعيار الذي يمكن أن نقارن به مراحل تطور تلك القواعد ، محاولين أن نؤصل منها ما تملك تأصيله .

ونحن في محاولتنا تلك سنلتزم بالتقسيم التقليدي الذي استقر في القرنين السابع والثامن أى أننا سنتناول القواعد الخاصة بفصاحة المفرد ثم ما يخص فصاحة الكلام ، وأخيرا ما قد يتعلق بفصاحة المتكلم من شروط وقواعد .

أولا - القواعد التي يشترط وجودها في المفرد :

١ - الخلو من تنافر الحروف :

أصل « التنافر » في اللغة هو التفرق والإعراض ، أما التنافر في الفصاحة الذي يشترط خلوصها منه فهو الذي يسبب ثقلا في اللسان وعسرا في النطق ويسمى الجاحظ الخلو من التنافر اقترانا سواء للحروف أم للألفاظ كما في قوله : « . . . فهذا في اقتران الألفاظ فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير . . . » (١) .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩ .

والجاحظ هو أول من تنبه من البلاغيين إلى التنافر الذي ينشأ بين الحروف والألفاظ بصورة كاملة منظمه ولقد شاع لفظ التنافر بعد الجاحظ الذي استخدمه ليدل به على وصف الألفاظ والحروف من هذه الناحية . فلقد جمع لنا طائفة من الشعر تظهر ذم الألفاظ التي لا تأتلف فلقد وصفها القدماء بيمر الكبش مثل قول أبي اليزاء الرياحي .

وَشِعْرٌ كَبَشٍ السَّكَبُشِ فَرَّقَ يَشْنُهُ لِسَانُ دَعِيٍّ فِي الْقَرِيضِ دَخِيلِ
كما شبهوها بأولاد العالمة كما في البيت الآتي :

وبعض قَرِيضِ الْقَوْمِ أَوْلَادُ عَالِمَةٍ يَكْسُدُ لِسَانَ الْنَاطِقِ الْمَحْفُظِ
وأولاد العلة هم بنو الرجل الواحد من أمهات شتى .

وقد يسمى عدم التنافر والتلاؤم ، كما فعل أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى حيث جعله القسم الرابع من أقسام البلاغة ، والتلاؤم عنده نقيض التنافر وتعديل الحروف في التأليف (٢) .

ولقد نقل هذا القول أبو بكر الباقلاني موسعا معنى التلاؤم ليضم أشياء أخرى غير الخنوص من التنافر (٣) .

ولقد تناول بهاء الدين السبكي هذه التسمية معترضا على لفظة د خلوص ، في تعريف القزويني للفصاحة د خلوصه من تنافر الحروف . . ، وذلك لأن كلمة خلوص في نظره تعريف بالأمور العدمية ويرى أن التعريف يكون بالذاتيات أو الخواص الوجودية ، ويرى أنه كان ينبغي أن يقول القزويني في تعريف الفصاحة د الفصاحة التام الحروف وكثرة الاستعمال وموافقة القياس (٤) .

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز ص ٨٧ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٢٨٦ .

(٤) شروح التلخيص ص ٧٧ .

فالخلوص من التنافر قد سماه الجاحظ بالافتران كما ذكر لفظة التنافر وحذر منها وأسماء الرمانى التلازم . وأخيراً أطلق عليه السبكي لفظة « التمام » .

أما عن أقسام تنافر الحروف فلقد جمعه القزوينى قسمين : قسم تكون اللفظة بسببه متناهية فى الثقل ، والقسم الثانى هو مادون ذلك من الثقل .

ومن أمثلة القسم الأول ما روى عن الخليل بن أحمد ونقله عنه ابن سنان حيث قال الخليل سمعنا كلمة شعاء وهى « الهَمْخُوع » ، ولقد جعل الخفاجى هذه اللفظة مثالاً على المهمل الذى يصعب النطق به « لضرب من التقارب فى الحروف فلا يكاد يحىء فى كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم ، ونقله .. » (٥) .

وينكر الخفاجى تأليف كلمة « الممخع » على هذه الصورة ، كما أنكرها الثقات من العلماء وقالوا : نعرف الممخع ، وهذا أقرب إلى تأليفهم ، لأن الذى فيه حرفان حسب ، وحروف الحلق خاصة مما قل تأليفهم لها من غير فصل يقع بينهما (٦) .

ويورد السبكي أن هذه الكلمة « الممخع » قد وردت عند الصفائى فى كتابه المسمى الصحاح باللفظ « الممخ » ، ، ويذكر السبكي أن الثقات من كلام العرب قد أنكروا هذا الاسم (٧) .

ويذكر السبكي أن كلمة « الممخع » قد وردت بصورة رابعة وهى « الممخمع » ويرى أن الصورتين الأخيرتين فيها غرابة (٨) .

(٥) سر النصيحة ص ٤٨ .

(٦) سر النصيحة ص ٤٨ .

(٧) شرح التلخيص ص ٧٩ .

(٨) شرح التلخيص ص ٧٩ .

ومن أمثلة القسم الثاني التي توقف عندها علماء البلاغة كلمة (مستشزرات)
التي جاءت في معللة امرئ القيس في قوله :

غداثه مستشزرات إلى الصلابة تنصّل المذكرى في مشي ومرسـل^(٩)

وتروى مستشزرات بفتح الزاي أي مرفوعات ، وبكسرهما أي مرتفعات .
ويرى السبكي أن الثقل في كلمة مستشزرات ناتج عن توسط الشين وهي
مهموسة رخوة بين التاء وهي مهموسة شديدة ، والزاي وهي مجهورة^(١٠) .

أما عن العلة في تنافر الحروف فلقد حدث خلاف في تقرير العلة الحقيقية
في التنافر ، ولقد نقل ابن سنان رأى الخليل بن أحمد في ذلك وتقدمه بعد ذلك ،
ويرى الخليل : « أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب
الشديد كان بمنزلة مشي المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ، ورده إلى مكانه ، وكلاهما
صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال ، ولذلك وقع في الكلام
الإدغام والإبدال ،^(١١) .

ويأخذ الرماني برأى الخليل من غير تحفظ ، أما الخفاجي فإنه يوافق على
رأى الخليل والرماني من بعده من ناحية واحدة فقط عندما يقرر أن التنافر
ينشأ من قرب مخارج الحروف ، لكنه يخالف ما ورد عن الخليل والرماني فيما
ذكراه عن بُعد المخارج : « ... والذي أذهب أنا إليه في هذا ما تقدمت ذكره
ولا أرى التنافر في بُعد ما بين مخارج الحروف ، وإنما هو في القرب ، ويدل
على صحة ذلك الاعتبار ، فإن هذه الكلمة — ألم — غير متافرة ، وهي مع
ذلك مبينة من حروف متباعدة المخارج ، لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم

(٩) ديوان امرئ القيس ص ١٧ ط دار المعارف سنة ١٩٦٩ .

(١٠) سروح التلخيص ص ٧٨ .

(١١) ورد هذا النص حرفياً في ثلاث رسائل ص ٨٨ وفي سـ .

الفصاحة ص ٩١ .

من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما ، وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متافرا ، لأنه على غاية ما يمكن من البعد ، وكذلك — أم وأو — لأن الواو من أبعد الحروف عن الهمزة ، وليس هذان المثالان مثل - عح ولا سز - لما يوجد فيها من التنافر لقرب ما بين الحرفين في كل كلمة ، ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجها في التنافر على ما ذكره ، (١٢) .

ويرى السبكي أن كلام ابن سنان الخفاجي ليس مطلقا ، بل يورد السبكي أمثلة لبعض الكلمات التي تتكون من حروف قريبة المخرج وخالية من التنافر مثل كلمة الشجر ، ود الجيش ، ود الفم ، ، كما أورد مثالا على الحروف المتباعدة مع القبح الذي يصاحب اللفظة مثل كلمة د ملح ، بمعنى أسرع .

ويرى السبكي ما رآه الخليل والروماني بأن التنافر قد يكون في الحروف المتقاربة والحروف المتباعدة على سبيل الغلبة لا اللزوم (١٣) .

لكنه يعود مرة ثانية إلى ترجيح ما ذهب إليه ابن سنان الخفاجي قائلا : .. وحيث دار الحال بين الحروف المتباعدة والمتقاربة ، فالمتباعدة أخف ، حتى جعل جماعة تباعد مخارج الحروف من صفات الحسن ، ونقله ابن الاثير في كنز البلاغة عن علماء البيان ، وقال الخفاجي إنه شرط للفصاحة .. ، (١٤) .

والحقيقة أن ابن الاثير قد نقل رأى الخفاجي وكأنه ييد عليه فقال : و قد ذكر ابن سنان الخفاجي ما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف ... أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه ... ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استئصال واستكراه ، فلم يؤلف بين حروف الخلق كالحاء والخاء والهمزة ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ،

(١٢) سر الفصاحة ص ٩١ .

(١٣) شروح التلخيص ص ٨٢ .

(١٤) شروح التلخيص ص ٨٢ .

ولا بين الزاى والسين ، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون التقارب .. ، (١٥) .

ويرى الخفاجى أن تأليف الحروف ثلاثة أقسام :

الاول : تأليف الحروف المتباعدة ، وهو الاحسن المختار ، وهو أغلب كلام العرب كما يذكر السبكي .

الثانى : تضعيف هذا الحرف نفسه ، وهو يلى هذا القسم فى الحسن .

الثالث : تأليف الحروف المتجاورة ، وهو إما قليل فى كلامهم ، أو منبوذ رأساً لما قدمناه (١٦) .

ولقد نقل ابن جنى هذا التقسيم فى كتاب سر صناعة الإعراب مستدلاً به على ما فعله بنو تميم عندما أرادوا إسكان عين د معهم ، كرهوا ذلك ، فأبدلوا الحرفين حامين فقالوا : د محم ، فقرأوا ذلك أسهل من الحرفين المتقاربين .

ويؤكد ابن سنان الخفاجى رأيه بأن كلام العرب قد خلا من تراكيب الحروف المتجاورة فى مخارجها مثل الصاد والسين والزاى ، ولا يوجد فى كلام العرب كلمات مثل : د صص ، ولا د صس ، ولا د سز ، ولا د زس ، ولا د زص ، ولا د صز .

وواضح من هذه الأمثلة التى ساقها الخفاجى صدقه على تنافر الحروف المتقاربة المخارج ، كما يتأكد رأيه فى كون تباعد المخارج من صفات الحسن والخفة .

وستتناول التنافر — إن شاء الله — من جانب آخر هو جانب الصوتيات وذلك فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بالأصوات اللغوية .

(١٥) المثل السائر ص ١٥١ — ص ١٥٢ ط محبى الدين عبد الحميد .

(١٦) سر الفصاحة ص ٤٨ .

٢ - الخلوص من الغرابة :

وأصل كلمة « الغرابة » يرجع إلى مادة « غرِب » ، بالضم وهي مصدر لهذه المادة وهي تفيد البعد عن الوطن، كما تفيد الكلام البعيد عن الفهم ولقد شاعت لفظًا الغرابة والغريب بين البلاغيين والمفويين كثيرا .

وتشير النصوص إلى أن الجاحظ أول من استخدم هذه المادة ليبدل بها عن الكلام الخارج عن البلاغة ، كما نبّهه إلى مدى خطرها وفسادها ، ويدل على ذلك تعليقه على بعض الأقوال التي تتضمن ألفاظا غريبة فيقول : . . . فإن كانوا رويوا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة .. وإن كانوا إنما دونوه في الكتب ، وتذاكروه في المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجّاج ، وشعر الطّرمّاح ، وأشعار هذيل تأتي لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك (١٧) .

وكما لاحظ الجاحظ أن اللفظ الغريب يبعد عن الفصاحة نراه يلاحظ أيضاً أن المعنى الغريب له نفس الأثر ، فالقصد في ذلك أن تجتنب السوق والوحش ، ولا تجعل ممكّن في تهذيب الألفاظ ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني . وفي الاقتصاد بلاغ ، وفي التوسط مجانبة للوعودة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه .. (١٨) .

فالجاحظ يعد أول من اشترط في اللفظة الفصيحة أن تكون خالية من الغرابة وبذلك فتح الجاحظ آفاقا واسعة لمن جاء بعده ليضيفوا الجديد في ميدان الغرابة .

لكننا نتساءل : ما المقياس الذي تقاس به الكلمات حتى يحكم عليها بالغرابة أو عدمها ... ؟

(١٧) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٨

(١٨) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٥

لقد قرر جماعة من البلاغيين أن الغرابة يجب أن تحمل بالنسبة للمرب العرباء الخالص من أهل البادية ، ولا تحمل بالنسبة لاستعمال الناس من مولدين وغيرهم ، ومن هؤلاء العلماء الجاحظ والسبكي والسيوطي وابن يعقوب المغربي . وهم بذلك يحملون الغرابة مطلقة لأن كلام العرب العرباء عندهم هو المقياس المطلق الذي ينسحب على كل للعصور .

ويقرر ابن يعقوب المغربي في موضع آخر أن الغرابة قد تكون نسبية ، فقد تكون الكلمة غريبة على المولدين لكنها فصيحة مستحسنة عند العرب الخالص^(١٩) ، وهو بذلك يتردد بين النسبية والإطلاق .

والواقع أن كلمة غرابة ، يختلف مدلولها من جيل إلى جيل ، ومن بيئة إلى بيئة أخرى ، كما أنها ترتبط بالأحداث الاجتماعية التي تترك أثرها على البحث العلمي ، فتؤدي أحيانا إلى العمق ، وأحيانا أخرى تؤدي إلى الضحولة ، ومن هنا لا يكون اللفظ غريبا على وجه الإطلاق ، فيجب علينا قبل أن نحكم على اللفظة بالغرابة أن نضع في حساباتنا الملاحظات التي أحاطت باللفظة عبر تاريخها الطويل وإلى تلك الظروف التي أشرنا إليها على جهلنا ، وبذلك نرى أن كل جيل له كلمات يعدها غريبة وينبغي عدم استعمال هذه الكلمات لأن استعمالها لا يعد فصاحة وإذا أردنا أن نوضح مفهوم الغرابة فأننا نتساءل : ما العوامل التي قد تؤدي باللفظة إلى الغرابة ... ؟

نستطيع أن نجمل هذه العوامل فيما يأتي :

العامل الأول : كون الكلمة وحشية :

وكون الكلمة وحشية أي أن معناها لا يظهر بسبب كونها غير مأثورة الاستعمال عند من تكون الكلمة وحشية لديهم ، وينتج عن كون الكلمة وحشية أن يحتاج في معرفتها إلى أحد هذين الشيئين :

(١٩) سروج التلخيص .

(أ) أن يبحث عنها في كتب اللغة .

(ب) أن يخرج لها وجه بعيد .

ومن أمثلة القسم الأول ما أورده الجاحظ عن يحيى بن عمر وأبي علقمة النحوي وأبي الأسود الدؤلي ، ونقل أنبلاغيون ما أورده الجاحظ عن أبي علقمة النحوي ونسبوه إلى عيسى بن عمر عندما كان ماراً ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مرة ، فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضون إمامه ويؤذنون في أذنه ، فأفلت منهم فقال : « ما لكم تتكأ كئون على ككأ كئون على ذى جنة ، افرنقوا عني .. » فقال أحدهم : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية^(٢٠) .

ونقل هذا الخبر كثيرون مثل المسكري والخفاجي والجوهري والزعفراني كما استدلل به شراح التلخيص . والغريب الذي لا يعرف إلا بالبحث في كتب اللغة المبسوطة قوله : تتكأ كئون بمعنى تتجمعون ، وقوله : افرنقوا بمعنى تفرقوا .

وينقل السبكي عن الزعفراني تفسيره لكلمة « افرنقوا » بأنها مأخوذة من حروف الفرقة مع زيادة العين ، ويبطال السبكي هذا التفسير بقوله « العين ليست من حروف الزيادة »^(٢١) ويرى الجوهري أنها مشتقة من فرقة الأصابع .

ومثل هذه الألفاظ الغريبة كثيرة في شعر المعجاج وابنه روبة ، وكان من شعراء العصر العباسي من يلجأ للغريب كأبي تمام والمتنبي ، ومن غريب أبي تمام كلمة « كهل » في قوله :

(٢٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٢١) شروح التلخيص ص ٨٧ .

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل
وساوس آمال ومذهب همة تخيل لي بين المطية والرحل
وكلمة درديس وقطر في قول أبي تمام أيضا :

بنداك يوسى كل جرح يعتلى رآب الاساة بدرديس قطر
وقوله قدك في البيت الآتي :

قدك انثيب اربيت في الغلواء كم تعذلون وانتهم سجراني
ومن أمثلة الغريب أيضا قول جرير :

وضع الخزير فقيلا أين مجاشع فشحا جحافله جراف هبلع
ومثل كلمة « بوزع » التي وردت في قول جرير أيضا :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع
وقيل إن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك ببوزع^(٢٢) مع
أن كلمة « بوزع » علم لامرأة ، لكن عبد الملك بن مروان قد استغربه .

ومن أمثلة القسم الثاني الذي يخرج له وجه بعيد حتى يظهر معنا ، كلمة
« مسرجا » التي وردت في بيت العجاج :

أيام أبدت واضحا مفاجا أغر برأقا وطرفا أبرجا
ومقالة وحاجبا مزججا وفاحما ومرسنا مسرجا
فلقد اختلف في تخريج قوله « مسرجا » ، ف قيل :

(أ) من قولهم سريجة أى منسوبة إلى قين يقال لها : سريج ، يريد أنه في
الاستواء والدية كالسيف السريجي .

ويرى صاحب مواهب القفاح أن الغرابية في قوله « مسرجا » لعدم جريانه

على النظر من المعلوم أن فعل ، للنسبة لا يكون على سبيل التشبيه مثل : نمتة فهو متمم أى نسبته إلى تميم . أما إذا كانت (فعل) بمعنى صار كذا كقوس صار كالقوس — فلا يصح ، إذ الواجب أن يقال : مسرجا بكسر الراء لعدم تعديه والرواية بالفتح ، ثم فسر مسرجا على الاحتمالين بقوله : أى كالسيف السريحي في الدقة والاستواء (٢٣) .

(ب) فسر قوله « مسرجا » بتشبيهه بالسراج في البريق واللمعان ، وتفسير الألف وتشبيهه بالسراج فيه غرابة .

(ج) وجاء في معنى « مسرج » أنها بمعنى بهج وحسن ، يقال : سرج القامرك أى بهجه وحسنه . وقيل إن « مسرج » بمعنى حسن يحتمل أن يكون مستحدثا (٢٤) .

وكلمة « مسرجا » غريبة على أى وجه من الوجوه ، فلقد نقلها الأئمة وتمثلوها على الغرابة سواء كانت اللفظة قديمة أم مستحدثة .

العامل الثانى : الكلمات الاصطلاحية :

وهى الكلمات التى تفهمها طائفة دون أخرى ، وتكون لها دلالة ترتبط بثقافتهم أو مهنتهم الخاصة بهم ، ومن ثم أصبح الكلمة الاصطلاحية غريبة على أسماع وفهم عامة المثقفين والادباء والعرب الخالص .

وأول من أدرك ما ينتج عن الكلمات الاصطلاحية من غرابة — أبو عثمان الجاحظ ولم يتبعه فى رأيه هذا إلا ابن سنان الخهاجى ، لكن عامة البلاغيين قد ردوا الغرابة إلى الوحشى من الألفاظ فقط .

واستدل الجاحظ على غرابة هذه الألفاظ باستعمال بعض الخطباء لألفاظ

(٢٣) شروح التلخيص ص ٨٤ — ص ٨٥ .

(٢٤) شروح التلخيص ص ٨٧ .

المتكلمين . ونهى الجاحظ عن ذلك المسلك قائلا : « وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد ، أو يوم الصاعين ، أو على منبر جماعة ، أو في سدة دار الخلافة أو في يوم جمع حفل ، إما في اصطلاح بين الدشائر ، واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الضفائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم رفيع المكان : ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسراهم ومكّن لهم لاشاهم فتلاشوا » .

ويسخر الجاحظ من خطيب آخر قد خطب في دار الخلافة فقال في خطبته : « وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله في باب الايسية » .

وبهجم خطيبا ثالثا لأنه قال في خطبة له : « هذا فرق بين السار والضر ، والذئباع والنفاع » (٢٥) .

ومثل هذه الالفاظ التي وردت في خطب الخطباء غريبة على أسماع الحاضرين ولا تناسب المقام الذي قيلت فيه ، ولا يجوز استعمال مثل هذه الالفاظ إلا بين المتكلمين أنفسهم فهم القادرون على إدراك مدلولاتها .

ويرى الجاحظ أن مثل هذه الالفاظ قد تحسن أحيانا في مقام التماح والتظرف كما فعل أبو نواس في استعمال ألفاظ المتكلمين كقوله (٢٦) .

وذا ت خذ مورّد	قوهيّة المتجرّد
تأمّل العَيْنُ منها	محاسنا ليس تنفد
فبعضها قد تناهى	وبعضها يتولد
والحسن في كل عضو	منها معاد مردد

وكقوله :

(٢٥) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٠ .

(٢٦) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤١ .

يا عاقد القلب منى هلا تذكرت حلا
تركت منى قليلا من القليل أقل
يسكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من لا

العامل الثالث : الألفاظ الدخيلة من اللغات واللهجات الأجنبية :

وهذا العامل ينشأ عن احتكاك وتداخل الشعوب، واختلاط الثقافات الذى من سماته أن يترك ألفاظا فى البيئة الجديدة ، والألفاظ التى يحملها أصحابها فى البيئة الجديدة تظل غريبة فى معناها وبنائها ، وفى الحقيقة أن أية لغة لا تستطيع مقاومة تيار الاخذ والعطاء بينها وبين اللغات التى قد تحتك بها ، لأن التطور الحضارى يدفع اللغات إلى ذلك ، وخاصة تلك اللغات التى يعانى المنكلمون بها من التخلف ومن ثم تعجز اللغة عن ملاحقة التطور باستحداث الألفاظ المناسبة لذلك ، كما أن اللغات التى تعيش فى مجتمعات متطورة لا تستطيع أن تقاوم غزو اللغات الأخرى أيضا لكن تعرضها لذلك يكون أقل .

وفى مقابل ذلك تموت ألفاظ كثيرة لا ترتبط بالحياة الاجتماعية أو الحضارية أو الدينية ، ولقد شغل علماء اللغة ببحث الدخيل الاجنبى فى العصور المتأخرة لكننا نجد الجاحظ قد نبه على ذلك ، وأورد كلمات فارسية كثيرة قد شاعت فى البصرة والكوفة والمدينة لنزول ناس من الفرس فيهم . ولذلك نجد رجلا مثل محمد بن منذر الشاعر يرى أن الفصحاة فى أهل مكة فقط ، وأن ألفاظ المكين أحكى لالفاظ القرآن الكريم وأكثرها موافقة ، ويقول ابن منذر مخاطبا أهل البصرة : « أنتم تسمون القنطرة بـرمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول قنطرة ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل : وجفان كالجوان وقدور راسيات ، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية وتجمعون هذا الاسم على علائى ، ونحن لسميه غرفة ونحن نجمها على غرفات وغرف ، وقال الله تبارك وتعالى : دُغِفَ من فوقهم أغرف مبنية ، وقال : دهم فى

الْمُفْرَسَاتِ آمَنُونَ ، وَأَنْتُمْ تَسْمُونَ الطَّلَامَعَ الْكَافُورَ وَالْإِغْرِيبُضَ ، وَنَحْنُ نَسْمِيهِ
الطَّلَعَ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَنَحْلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ^(٢٧) .

كما يورد الجاحظ عن ابن منذر الالفاظ الدخيلة التي شاعت في بيئة الكوفة
والمدينة ، مستدلاً بذلك على فصاحة أهل مكة .

وهذه الالفاظ غريبة على العرب الخالص الذين لم تتلوث لغتهم بالدخيل من
اللغات الاجنبية الاخرى . وتظل هذه الالفاظ غريبة حتى يتغذى فيها حكم
الانتقاء الطبيعي والتطور .

وقد يلجأ بعض الشعراء إلى إدخال الالفاظ الاجنبية عمداً في شعرهم على
سبيل التملح والنظرف بها كما فعل العماني عندما ضمن شعره بعض الالفاظ
الفارسية مثل قوله في قصيدته التي مدح بها الرشيد ^(٢٨) .

مَنْ يَلْسُقُهُ مِنْ بَطَلٍ مُسْرَنْدٍ فِي زَعْفَمَةٍ مُعْكَكَةٍ بِالسَّرْدِ
تَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ وَالْكَرْدِ

وفي هذه القصيدة يقول أيضاً :

لَمَّا هَوَى بَيْنَ غِيَاضِ الْأَسَدِ وَصَارَ فِي كَفِّ الْهَزِيرِ الْوَرْدِ
أَلَى يَذُوقِ الدَّهْرِ آبَ السَّرْدِ

وكقول يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ^(٢٩) :

أَبَ اسْتُ نَيْيَذَ اسْتُ عَصَارَاتِ زَيْبِ اسْتُ
سَمِيَّيَهْ رَوَسِيدَ اسْتُ

(٢٧) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩ .

(٢٨) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٢ .

(٢٩) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٣ .

العامل الرابع : اللكنة :

اللكنة في الحقيقة من عيوب المتكلم وليست من عيوب الكلمة لأن عيوب الكلمة صفة ثابتة فيها لكن قد تصير الكلمة الفصيحة غريبة بسبب ما يصيبها من لُكنة عندما ينطق بها غير الفصيح مثل الأعاجم أو العرب الذين نشأوا بين الأعاجم ، أو من أصابتهم عوارض في الفم أو اللسان ، فن الأعاجم الشاعر زياد بن سلمى الذي كان يجعل السين شينا أو الطاء تاء فكانت عندما ينشد قوله :

فتى زاده السلطان في الود رفعة اذا غيّر السلطان كلّ خليل
فانه يقول : و فتى زاده السلطان ، .

ويورد الجاحظ مجموعة من الكتاب والشعراء والأعاجم ممن لا يستطيعون التخلص من لكتهم، وكانوا يقبلون الحاء هاء والسين شينا والشين سيناً ، والقاف كافاً والذال دالاً ، ويورد الجاحظ في هذا المقام قول بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لكتها :

أول ما أسمع منها في السحر تذكيرُها الآنثى وتأنيث الذكر
والسَّوءَةُ السَّوَاءُ في القمر

وقد تكون اللكنة بتغيير حركة مثل ما يورده الجاحظ عندما فتح النبطي المكسور ، فلقد قيل له : لم ابتعت هذه الاتان ؟ قال : أركبها وتأكّد لي فقال :
و تأكّد ، ولم يقل : تليد ، .

والعربي الفصيح من أهل البادية لا يفهم مثل هذا الكلام الذي قد تغير فهو غريب عليه ، ويحكى الكسائي أنه قال لغلام بالبادية : من خلقتك ... ؟ وجزم القاف : فلم يدّر الغلام ما قال ، ولم يجبه ، فأعاد الكسائي عليه السؤال ، فقال الغلام : لملك تريد : من خلقتك ... (٣٠) .

ويروى أنه قيل لأعرابي: كَتَبْتُكَ أَهْلًا، بكسر اللام، أجاب الأعرابي: صَاحِبًا، فلقد أجاب الأعرابي على فهمه، ولم يعلم أن السائل أراد السؤال عن أهله وعياله (٣١).

فالأشكنة قد تؤدي إلى الغرابة عند الذين لم يتعودوا الفساد والمعدول عن أصله.

هذه هي العوامل التي نرى أنها تؤدي إلى الغرابة. وربما يؤدي بعضها إلى أشياء غير الغرابة — قد تكون سببا في فساد الفصحاة، فقد تؤدي الالفة إلى عدم الجريان على القياس اللغوي، وقد تؤدي المصطلحات الفنية إلى التعقيد.

ويرى ابن يعقوب المغربي أن الغرابة قسمان:

١ — غرابة قبيحة مستكرهة ذوقا لعدم تداولها في لغة خالص العرب وهم أهل البادية دون المولدين، وهذه الغرابة مخلة بالفصاحة مطلقا مثل كلمة «ججيش» للفريد أي المستبد بأمره الذي لا يشاور الناس في رأيه.

٢ — غرابة مستحسنة، وهي غير مخلة بالفصاحة بالنسبة إلى العرب الخالص الحكماء قد تكون غريبة بالنسبة للمولدين، ومن هذا الغريب المستحسن غريب القرآن والحديث الشريف (٣٢).

فالغرابة المستحسنة إذن نسبية، أي أنها غريبة عند قوم وهم المولدون، وحسنة عند العرب الخالص.

ولا يعنى اشتغال القرآن الكريم والحديث الشريف على الغريب أنه يشتمل على غير الفصيح، لأن غريب القرآن فصيح بالنسبة للعرب جملة لأن القرآن نزل بلغة العرب جملة، وإن كان غالب القرآن قرشيا، ولغة قریش شائعة

(٣٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٦٣.

(٣٤) شروح التلخيص ص ٨٣ — ص ٨٤.

بين العرب لمساكتهم بينهم . وإذا كان الأمر كذلك فما درجة فصاحة غريب القرآن ... ؟

يرى صاحب مواهب الفتاح أن غريب القرآن فصيح ولكنه أقل من غيره في الفصاحة ، لأنه من المسلم أن القرآن متفاوت في نفسه في البلاغة والفصاحة (٣١)

فغريب القرآن فصيح عند أكثر العرب من أهل البادية وهم الذين يعتد بهم وقت نزول القرآن . أما عند المولدين وبعض العرب فهو غريب . وهؤلاء لا تقاس الغرابة بالنسبة إليهم ، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم .

ومع أن استعمال العرب الفصحاء هو مقياس الغرابة وعدمها عند جمهور البلاغيين إلا أن ابن درستويه قد ذكر في شرح الفصيح لطلب أن الفصاحة ليست في كثرة الاستعمال ولا قلته ، وقد يلجج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها (٣٢) .

ولقد انتبه الجاحظ إلى ذلك في البيان والتبيين ، ولكن ما يريد الجاحظ وابن درستويه لا يقصد به في التعميم وإنما هو احتمال له ظروفه وملازماته . هذه بعض الآراء التي تختلف في كون الغرابة مطلقة أو نسبية وهي آراء تستحق الوقوف عندها لمناقشتها لكننا نحتاج إلى بحث مستقل مستفيض لسأل الله أن يعيننا على إنجازه . ومع ذلك فإننا نرجح نسبية الغرابة كما أشرنا آنفا .

٣ - الخلوص من مخالفة القياس اللغوي :

أي أن تكون الكلمة جارية على النحو الذي يرتضيه أهل اللغة ، وتكون الكلمة مخالفة إذا لم تكن على هذا السبيل . لكن ما القانون الذي يتقرر به حكم المفردات اللغوية .. يرى جمهور اللغويين والبلاغيين أن ذلك يتقرر بقانونين:

(٣١) شروح التلخيص ص ٨٨ .

(٣٢) الزهر للسيوطي ج ١ ص ٢٠٧ - ص ٢٠٨ .

(١) القوانين الصرفية والنحوية .

(ب) كثرة استعمال العرب الفصحاء الذين يعتد بكلامهم .

ولذلك نرى رجلا كابن يعقوب المغربي يحدد المخالفة في عبارة تشمل القانونين وهي قوله : « المخالفة كون الكلمة على خلاف ما يثبت فيها عن الواضع بالاستعمال الكثير » (٢٥) .

لكن رجلا كالسبكي لا يرى أن مخالفة القياس تخل دائما بالفصاحة ، فقد توجد الفصاحة فيما خالف القياس . فتى تكون مخالفة القياس مخلة بالفصاحة في نظر السبكي ... ؟

يرى بهاء الدين السبكي أن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم تقع في القرآن الكريم (٢٦) . أي أن المخالفة وحدها لا تكفي بل لابد أن تتوافر معها قلة الاستعمال ، ولقد جاءت كلمة « مُرَر » في القرآن الكريم مخالفة للقياس ولكنها فصيحة لورودها في القرآن ، والقياس أن مرير يجمع على أمرة ، لأن فمیل يجمع على أفعله وفعلان مثل أرغفة ورغفان .

والذي جعل كلمة « مُرَر » فصيحة ورودها في القرآن الكريم فقط . ويرى جلال الدين السيوطي أن الخل بالفصاحة هو قلة الاستعمال وحدها (٢٧) ومعنى هذا أن مدار الفصاحة عنده على كثرة الاستعمال وأن عدمها على قلته ...

ومن ثم نجد يرجع الغرابية ، والتاسفر ، ومخالفة القياس إلى قلة الاستعمال ، وهو تقرير لا يخلو من التعميم .

(٢٥) شروح التلخيص ص ٨٩ .

(٢٦) شروح التلخيص ص ٨٨ .

(٢٧) المزهري في علوم اللغة ج ١ ص ١٨٨ - ص ١٨٩ .

ولقد أشرنا آنفاً إلى رأى ابن درستويه الذى يخالف السيوطى فى ذلك وهو أن الفصحاحة ليست فى كثرة الاستعمال ، ولا قلته ، وقد يلجج العرب الفحصاء بالكلمة الشاذة عن القياس ، البعيدة عن الصواب حتى لا يتسكلوا بغيرها ، ويدعوا المطرد المنقاس (٣٨) .

ويرى ابن درستويه أنه لا يجب لذلك أن يقال : هذا أفصح من المتروك (٣٩) .

وفى مقابل ذلك يرى ابن درستويه أنه ليس كل ما ترك الفحصاء استعماله بخطأ ، فقد يترك استعمال الفصحاح ، لاستغنائهم بفصح آخر ، أو لصله غير ذلك (٤٠) .

والجاحظ قد أنبه إلى ضرورة جريان اللفظ على قواعد اللغة وموافقة لطريقة استخدام العرب الفحصاء له ويقول الجاحظ : « وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منادى مسكره أخاك لا بطل ، و « إذا عزَّ أخاك فهن ، ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذمبت إلى أبو زيد ، ورأيت أبى عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه يترجموه ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة ، وتنقص البيان (٤١) » .

وتراه يعقد فى البيان والتبيين بابا فى اللحن وذمه وأثره فى إفساد الفصحاحة ، وينقل عن عبد الملك بن مروان قوله : « اللحن هجعة على الشريف ، والعجب آفة الرأى » . وينقل القول الآتى فى آثار اللحن : « اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه » .

(٣٨) المزهر فى علوم اللغة ج ١ ص ٢٠٨ - ص ٢٩٠ .

(٣٩) المزهر فى علوم اللغة ج ١ ص ٢٠٨ - ص ٢٩٠ .

(٤٠) البيان ج ١ ص ١٦٣ .

(٤١) البيان ج ٢ ص ٢١٦ .

ثم يورد لنا طائفة من الأقوال التي بها لحن يفسد فصاحة أصحابها .
وترجع أهمية ما أورده الجاحظ إلى أسبقيته في هذا المجال مما قد فتح المجال
واسعا في هذا الموضوع أمام البلاغيين واللغويين ، كما أنه قد وضع جذور ما
لستطيع أن نسميه (بالنقد اللغوي) وهو اتجاه في النقد قد شاع في فترات اسكه
لم يأخذ العناية الكافية من الباحثين المحدثين حتى يتشكل في صورته المثلى .

ومن أبرز الذين اشترطوا موافقة القياس اللغوي في الفصاحة هو :
ابن سنان الخفاجي الذي أرجع المخالفة إلى مجموعة من الأسباب سنحاول
أن نوجزها وأن نربط رأيه فيها برأى من جاءوا من بعده ووجوه
الاختلاف إن وجدت وأسباب مخالفة القياس كما يراها البلاغيون واللغويون
عامة والخفاجي خاصة وهي :

(١) أن تكون اللفظة غير عربية مثل كلمة (المقرض) في قول أبي
الشيخ (٤٢) .

وجناح مقصود تحيِّف ريشته ريشبُ الزمان تحيِّف المقرض
وقول أبي عباد :
وأبست تركي الغديبات والآ

صال حتى خُصَّ بُسْتُت بالمقرض
فيرى ابن سنان أن المقرض ليس من كلام العرب ، لكننا نرى أن أصل
هذه المادة وهو (قرض) عربي ، ويبدو أن الذي دفع الخفاجي الى القول
بأنه ليس من كلام العرب أنه لم يسمَّع في كلام العرب الا مشى ، ولم يخالف
الجمهور في ذلك إلا سيويوه .

(ومقرض) اسم مشتق جاء على وزن (مفعال) ليدل على الآلة التي حدث
بها الفعل .

ب — أن تكون اللفظ عريية إلا أنها قد مُعَبِّر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة مثل كلمة (الايِّم) ^(٤٣) التي استعملوها مكان (الطيب) والايِّم هي التي لازوج لها سواء كانت بكرًا أو ثيبًا كقوله تعالى : « وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » ، وفسرت كلمة (الايامى) بالنساء اللواتى لا أزواج لهن . ومن الذين أخطأوا في استعمالها أبو تمام في قوله :

حانت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الايِّم

وكقول أبي عباد :
 يشق عليه الريح كل عشيّة

جيوب الغمام بين بكر وأيم

ولقد استخدمها الشماخ بن ضرار استخداما صحيحا في قوله :

يقر بعيني أن أحدث أنها وإن لم أنلها أيم لم تزوج

ومثال كلمة (الايِّم) كلمة (الصَّلف) ^(٤٤) فلقد أخطأ الشعراء عندما

استخدموها بمعنى الكبر والتيه ، أما العرب فقد استخدموها صفة للمرأة التي

لم تحظ عند زوجها ، كما استخدمها العرب صفة للرجل الذي كرهته المرأة . كما

استخدموا هذه اللفظة ليدلوا بها على قلة الخير ، ومن الذين أخطأوا في استخدامها

أبو تمام في قوله :

مامة رُبَّ يَحْتال في أشطانيه ملان من صلايف به وتكلم وق

ومثال ذلك أيضا كلمة (قَسَط) ^(٤٥) التي استخدموها بمعنى (أقسط)

وأقسط بمعنى عدل ، أما قَسَطَ فعن معنى جارٍ وظلم كما جاء في قوله تعالى :

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » ومن الذين أخطأوا في استخدامها أبو

عبادة البحري :

• (٤٣) سر الفصاحة ص ٦٧

• (٤٤) سر الفصاحة ص ٦٨

• (٤٥) سر الفصاحة ص ٦٩

شرطى الإنصافُ إن قيل اشترطُ وصديقى مَنْ إذا صافى قسـطُ
جـ — من جهة الحذف من الكلمة أو النقص فيها ويشترطاً حازم القرطاجنى
في الحذف أن يكون مجعفاً^(٤٦) كقول ليـد :

• درس المنا بتالع فأبان •

أراد المنازل •

أما الحفاجى فإنه يقول بـطلاق الحذف ، ومن ذلك عنده قول رؤبه
ابن العجّاج :

• قواطناً مكّة من ورُق الحما •^(٤٧)

يريد الحمام • وكقول خفاف بن نديه :

كنواح ريش حمامةٍ نـجـديّةٍ ومسحت باللائـمـين عصف الإئمـد^(٤٨)

يريد نواحى • وكقول مضرّس بن ربـعى :

وطرتُ بمُـنـصـلى فى يـمـلات درامى الأيدى يـخـبـطن الصـريـحا^(٤٩)

يريد الأيدى •

وكقول النجاشى :

فلست بآتيه ولا أستطيعه ولا لك أسقى إن كان مأوك ذافـضل^(٥٠)

يريد ولكن •

وكقول أبى الطيب المتنبى فى رثاء أخت اسيف الدولة •

(٤٦) شروح التلخيص ص ٨٩ •

(٤٧) سر الفصاحة ص ٦٩ •

(٤٨) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٤٣ تحقيق د • محمد مصطفى

هدارة ، د • محمد زغلول سلام •

(٤٩) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٤٣ •

(٥٠) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٢٦ •

تَعَثَّرَتْ بِهِ فِي الْأَفْوَاهِ السِّنِّهَا وَالْبُرْدُ فِي الطُّرُقِ وَالْأَقْلَامُ فِي الْكُتُبِ
فَيُخَفَّفُ الْمَتْنِي الْمَاءُ فِي كَلَامَةِ (بِه) لِلْوِزْنِ .

وهذا يبرهن على أن ابن سنان الخفاجي قد جعل مطاق الحذف محلاً ، وسبباً
في المخالفة فنراه يأتي بأمثلة قد حذف منها حرف أو أكثر ، ونراه يأتي بأمثلة
قد حذفت حركة فقط منها .

ويورد ابن القزاز صوراً كثيرة للحذف مما قد يجوز وما لا يجوز ، (٥١)

د — وفي مقابل جعله الحذف سبباً للمخالفة يجعل الإضافة بزيادة حرف
أو أكثر سبباً آخر للمخالفة (٥٢) وذلك مثل إشباع الحركة فتصير حرفاً كما قال
ابن هرمة في رثاء ابنه :

وَأَنْتَ عَلَى الْغَوَايَةِ حِينَ تُتْرَمَى وَعَنْ عَيْبِ الرِّجَالِ بَمُتْرَاحٍ
أَي (بِمُتْرَاحٍ) .

ومثل :

وَأَنْتَ حَيْثُ مَا يَسْرِي الْهَوَى بِصَرِيٍّ مِنْ حَيْثُ مَا نَظَرُوا أَدْنُو فَاَنْظُرُوا (٥٣)
يريد أدنو فأنظر .

ومثل قول الفرزدق :

تَنْفِي يَدَاهَا الْخِصَافِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفَى الدَّرَاهِمِ تَنْقَادَ الصَّيَارِفِ (٥٤)

(٥١) أنظر ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٢٣ ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .
ص ١٣٤ .

(٥٢) سر الفصاحة ص ٧٠ .

(٥٣) سر الفصاحة ص ٧١ ويروى البيت في الضرائر :

وانني حيث ما يثنى الهوى بصري

من حيث ما سلكوا أدنو فأنظور

انظر ص ١٢٧ من الضرائر ، وهو منسوب في الضرائر الى
ابراهيم بن هرمة .

(٥٤) للضرائر ص ١٢٨ .

يريد الدراهم والصيارف .

هـ — من جهة إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل . (٥٥) ومن جاء باللغة الرديئة الشاذة البحترى في قوله :

متحيرين "فباهت" متعجب مما يرى أو ناظر متأمل
فقوله (باهت) لغة رديئة شاذة والعرب المستعمل هو "يهت" الرجل
فهو مهوت .

ومن ذلك أيضاً قول المتنبى :

ولذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلام اللذّ عنا
فان (الذّ) لغة شاذة قليلة في (الذى) .

ومن ذلك قول المتنبى أيضاً :

أفطّمه الذّوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الآن
فالذّوراب لغة شاذة وغير كثيرة (التراب) .

وقد يكون من جهة أن الكلمة بخلاف الصيغة في الجميع أو غيره (٥٦) وذلك
مثل قول النمراسم :

وأكره أن يعيب على قومي هجاء الأردلسين ذوى الحنات
فجمع (إحنه) على (حنات) وهو غير صحيح والجمع الصحيح
(إحن) . ومن ذلك أيضاً :

• من نسج داود أبي سلام (٥٧)

بريد (سليمان) .

(٥٥) سر الفصاحة ص ٧١

(٥٦) سر الفصاحة ص ٧٢

(٥٧) ضرائر الشعر ص ٢١٢ ويروى «جدلاً» محكمة من نسج سلام .

ز - من جهة إبدال حرف من حروف السكلة بغيره . (٥٨) ومن ذلك قول شاعر من بني يشكر :

لها أشارير من لحم متممة
من الشعالي ووخز من أرائها (٥٩)
يريد من الشعالب وأرائها .
ومن ذلك أيضا :

ومنهل ليس به حوازيق^١ وانفادى جمته نقانق (٦٠)
يريد وانفادع .

ح - ومن الأسباب أيضا إظهار التضعيف في السكلة مثل قول الشاعر وهو قعنب بن ضمرة .

مهلا أعاذل قد جربت من خلقي أنى أجود لأقوام وأن ضنتوا
ومثل قول أبي النجم الذي تمثل به القزويني وتبعه شراح التخليص :
الحمد لله العلى الاجل أعطى ولم يبخل ولم يبخل
لأن قياس التصريف في الأصل هو الإدغام في كلمة (الاجل) و (ضنوا) .
وبيت أبي النجم قد نقله السكاكي عن سيبويه بهذه الصورة ، لكن ابن
يعقوب يورده بصورة أخرى هي : (٦٢)

الحمد لله العلى الاجل الواحد الفرد القديم الاول
هذه هي الوجوه الشاذة عن العرف العربي الصحيح ، والتي رددها وجمعها علماء
النحو والبلاغة وأبرزها ابن سنان الحفاجي الذي يرى أنها مفسدة للفصاحة

(٥٨) سر الفصاحة ص ٧٢ .

(٥٩) سر الفصاحة ص ٧٢ ويروى في الضرائر ص ١٧٩ :

لها أشارير من لحم متممة

من الشعالي ووخز من أرائها

(٦٠) ضرائر الشعر ص ١٧٩ .

(٦١) ضرائر الشعر ص ١٧٢ .

ويجب أن تكون الكلمة خالية منها . ولقد أفرد ابن القزاز كتاباً لضرائر الشعر وقد قام بتحقيقه أستاذنا الدكتور هداره .

وإلى جانب هذه المجموعة من الوجوه المفسدة يرى الخفاجي أن هناك مجموعة أخرى من الوجوه أقل تأثيراً في إفساد فصاحة الكلمة وعلى الرغم من قلة تأثير هذه المجموعة إلا أن الخفاجي يفضل أن تصان الكلمة عنها ، لأن الفصاحة تنبئ عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها وهذه الوجوه في نظره صفات نقص . ولذلك يجب أن تطرح . (٦٢)

وهذه الوجوه قد تقبل إذا وجد لها قدر من التأويل المقبول ، وقد تقبح إذا لم تؤول تأويلاً مقبولاً .

وهذه المجموعة من الوجوه يرجع الفضل في جمعها عن النجاة إلى الخفاجي ، وابن القزاز وحازم القرطاجني .

ولقد قسم حازم الضرائر إلى قسمين :

أ — ضرائر مستقبحة وغير سائغة .

ب — ضرائر سائغة لا تستوحشها النفس .

ومن الوجوه ذات الأثر القليل في إفساد فصاحة الكلمة ما يأتي : —

أ — صرف مالا ينصرف مثل قول حسان بن ثابت :

وجبريلُ أمينُ اللهِ فينا وروحُ القدُسِ ليس لها كفأُ

ويقابل ذلك منع الصرف لما ينصرف مثل قول العباس بن مرداس .

وما كان حصن ولا حابسُ يفوقان مرداسَ في مجمعِ (٦٣) .

ومثل قول البحترى :

هزج السهيل كأنَّ في نغماته نبرات معبَّدة في الثقل الأول

(٦٢) شروح التلخيص ص ٨٨ — ص ٨٩ .

(٦٣) سر الفصاحة ص ٧٣ ، الضرائر ص ١١٢ .

ويقسم حازم القرطاجنى ضرائر الممنوع من الصرف إلى نوعين : (٦٤)
 ١ — نوع تستوحش منه النفس ولا تقبله مثل الاسماء المدولة وأشد من
 الاسماء المدولة استيحاشا — تنوين الصفة التى على وزن (أفعل) .
 ٢ — نوع مقبول وهو باقى الاسماء الممنوعة من الصرف .
 وقد أخطأ بهاء الدين السبكي عندما ذكر أن الخفاجى قد أطلق أن صرف
 ما لا ينصرف وعكسه فى الضرورة مغل بالفصاحة .. (٦٥)

وكما ذكرنا آنفا أن الخفاجى قد أوصى بصيانة الكلمة من هذه الوجوه التى
 تدخل النقصان على الفصاحة ، وأنها تقبل أحيانا . . . على أن ما ذكرته يختلف
 قبحه فى بعض المواضع دون بعض ، على قدر التأويل فيه وحكمه ، (٦٦) .
 فالخفاجى لم يطلق الحكم بالإخلال بالنسبة للممنوع من الصرف أو غيره
 كما توهم السكاكى ، وتبعه فى هذا الوهم جلال الدين السيوطى . (٦٧)

ب — قصر الممدود مثل قول الأعشى :
 القارحَ العَدَا وكل طمرّة ما إن تنال يد الطويل قذالها
 وفى مقابله مدّ المقصور مثل :
 سيفينى الذى أغناك عنى فلا فقر يدوم ولاغناء
 ويرى حازم القرطاجنى أن قصر الجمع الممدود ومد الجمع المقصور ليس
 مستقيما . (٦٨)

(٦٤) منهاج البلاغز وسراج الأدباء ص ٢٢٢ وما بعدها ، وعروس
 الأفراح ص ٨٩ ، والمزهر للسيوطى ج ١ ص ١٨٩ — ص ١٩٠ .
 (٦٥) شروح التلخيص « عروس الأفراح » ص ٩٠ .
 (٦٦) سر الفصاحة ص ٧٤ .
 (٦٧) المزهر ج ١ ص ١٨٩ .
 (٦٨) منهاج البلاغز ص ٢٢٥ تحقيق الخبيب بن خوجة ط تونس
 سنة ١٩٦٦ .

ج — حذف الإعراب للضرورة ، مثل قول امرئ القيس بن حجر :

فاليوم أشرب غير مستحـقيبٍ إثمأ من الله ولا وإِغلي (٦٩)

ويرى بهاء الدين السبكي أن الضرائر المتعلقة بحركة إعراب الكلمة لا ينبغي أن ينظر إليها المتكلم في فصاحة الكلمة ؛ لأن الحركة زائدة على وضع الكلمة تحدث عند التركيب (٧٠)

ونحن نرى أنه يدخل في باب اللحن ، واللحن مفسد الفصاحة لأن الإعراب فرع المعنى وقد يقلب المعنى رأساً على عقب — أحياناً — عند تغيير حركة الإعراب ، وعلى ذلك نرى أن الضرورة في حركة الإعراب من أقبح الضرورات وهذا يخالف ماذهب إليه الخفاجي والسكاكي كما أشرنا .

د — تأنيث المذكور على بعض التأويل مثل

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم
فلقد أنث الفعل في قوله ، شرقت صدر القناة ، وتأويل التأنيث يرجع إلى إضافة كلمة صدر إلى مؤنث .

وفي مقابل ذلك تذكر المؤنث مثل قول عامر بن جوين الطائي :

فلا مُرْنةٌ مودقتٌ ودقها ولا أرضٌ أبقتُ لإبقتُها (٧١)

لحذف علامة التأنيث من أبقلت والوجه لإبائها .

هـ — بعض الزيادات المكروهة مثل :

١ — إدخال الالف واللام على الفعل مثل :

يقول الخنأ وأبغض العجم ناطقاً إلى ربنا صوت الحمار إليه جـدع
ومثل :

• ما أنت بالحكم الترضى حكومته •

(٦٩) ضرائر الشعر ص ١٣٧ •

(٧٠) شروح التلخيص ص ٨٩ — ص ٩٠ •

(٧١) ضرائر الشعر ص ١٦٠ •

٢ — تشديد الكلمة المخففة مثل قول الشاعر :

كان مهواها على السكالك

ومثل قول رؤبة :

ضخم يحجب الخلق الاضخما

٣ — تحريك الياء التي تقع قبلها كسرة في الرفع والجر مثل قول الشاعر :

ما أن رأيت ولا أرى في مدنى كجوارى يلعبن في الصحراء

والشاهد في هذا البيت هو كلمة (جوارى) جمع جاريه ، وكان حق الكلام الفصيح حذف الياء (جوارٍ) .

هذه هي الوجوه التي رآها النحويون مخالفة لجرىان الكلمة على العرف العربي كما جمعها الخفاجي والقزاز وحازم القرطاجنى والسكاكى ، وهي كما رأينا قسمان : قسم مستقيم ويفسد فصاحة الكلمة ، وقسم آخر مكروه لانه ينقص الفصاحة ومن الافضل خلو الكلمة منه . كما رأينا وجوه الخلاف بين الخفاجى وحازم والسكاكى . وفي رأينا أن الخفاجى قد أصاب في أكثر ماذهب إليه .

صلة الفصاحة بالضرائر الشعرية :

وبعد ، فتمة علاقة وثيقة بين ضرائر الشعر والفصاحة ، ولقد أوضحنا صوراً كثيرة وأمثلة عديدة للضرائر كما رآها الخفاجى وحازم القرطاجنى ، وهي أمثلة وأنواع مستمدة من شعر الشعراء السابقين لهم ، ومن أراء النحاة والرواة على اختلاف اتجاهاتهم ومدارسهم ومقاييسهم .

وإذا كانت الفصاحة الخاصة بالمفرد أو الكلام تشترط موافقة القياس اللغوى والخلوص من ضعف التأليف فمل يعني هذا أن الضرائر الشعرية تنفى صفة الفصاحة عن الشعر الذى تظهر فيه . . . ؟

المعروف أن وصف تراكيب اللغة وبناء الالفاظ ، أى النحو والصرف ، قد استلهمت ظواهره وقضاياها من الشعر الجاهلى والقرآن الكريم والحديث الشريف وشعراء القرن الأول ، وصارت أوصاف اللغة من الناحية التركيبية أو الاشتقاقية أو البناء — دليلا للرواة والنحاة والنقاد يهتدون به عند نظرهم إلى اللغة وفنونها التى ابتدعت بعد ذلك .

لكن هذا لايعنى أن وصف اللغة قد اكتمل فى القرنين الأول والثانى ، فلقد ازدادت تلك الأوصاف اتساعا ، كما أنها قد وصفت أوصافا أخرى غير أوصافها التركيبية ، ونعنى بذلك تلك الأوصاف المتعلقة بانتظام الكلام وتأليفه ومدى علاقتها بالذوق والجمال ، مما قد استقر وضعه فى النقد والبلاغة .

فالتجاوزات أو الضرورات التى يلجأ إليها الشعراء ويتجاوز عنها النقاد تختلف أنواعها بحسب مناهج النقد ودارسى اللغة فالذى لايتجاوز عنه الرواة والنحاة قد يتجاوز عنه النقاد والبلاغيون ، لأنه يحقق فى نظرهم قيمة جمالية لا تتحقق بمراعاة مايراه الرواة والنحاة لازما . وهذه القيم الجمالية التى يراعيها النقاد والبلاغيون قد يرتبط بالأذن مثل النسق الموسيقى المتمثل فى الأوزان والقوافى وغيرها ، وقد ترتبط بالتصوير أو الخيال الذى يتسع ويضيق ، ويمتد أو يتضخم .

والفصاحة وهى تستهدف وصف اللغة من جوانب مغايرة ، قد تختلف وقد تتفق مع أنواع الضرورات فالضرورات التى تؤدى جهاتها إلى تغيير المعنى بما تشيعه فى اللغة من سوء الفهم والإفهام — هى محلة للفصاحة ، ولا وجه لقبولها ، ويتمثل ذلك فى تغيير علامات الإعراب (٧٢) لأن الضرورة التى تغير

(٧٢) انظر ضرائر الشعر لابن القزاز تحقيق د. محمد مصطفى
 مداره ص ٩٠ ، ص ٩٨ ، ص ١٣٧ ، ص ١٦٨ .

العلامة إنما تغير وظيفة الكلمة في الجملة مما يترتب عليه تغيير المعنى وهذا في رأينا محل بالفصاحة ، ولا نرى قبولاً له ، لأنه أدخل بالأساس الذي تقوم عليه الفصاحة ، وهو الفهم والإفهام بكلام العرب المشهود لهم بصفاء اللغة . ونخص بالذكر تغيير الإعراب الذي يترتب عليه إخلال بالفهم ، أما التغيير الذي لا يؤدي إلى سوء الفهم ، فهو في رأينا لا يخل بالفصاحة مثل صرف ما لا ينصرف^(٧٣) ومنع الصرف عما هو مصروف ، وذلك كما رأينا في الأمثلة التي أوردناها .

كما نرى أن الحذف أو الزيادة في بناء الكلمة اللذين يؤديان إلى الإغلاق وسوء الفهم يخلان أيضاً بالفصاحة ، لأنهما يصرفان المعنى عن جهته المقصودة ، أما الحذف أو الزيادة اللذان لا يخلان بالفهم فهما لا يخلان بالفصاحة في نظرنا .

كما أننا نرى أنه لا بأس من قبول الضرورات التي يتحقق بها نسق موسيقى ، بشرط ألا يؤدي تحقيق ذلك النسق إلى الإخلال بقواعد الفصاحة . ولقد أشرنا إلى بعض الضرورات التي لا تخل بالفصاحة فيما سبق . والضرورات الشعرية مجال يتسع البحث فيه إذا ما تعلق بأوصاف اللغة ، أي بعلومها المختلفة ، مما قد يكون بحثاً آخر منفرداً .

٤ - الخلوص من الكراهة في السمع :

يحدد القزويني الكراهة في السمع بأن تكون الكلمة ممجوجة تتبرأ من سماعها الأذن كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة^(٧٤) والأصوات في نظره منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكرهه سماعه .

(٧٣) انظر ضرائر الشعر لابن القزاز تحقيق د . محمد مصطفى

هداره ص ٨٣ .

(٧٤) شروح التلخيص ص ٩٠ .

وهذا تلخيص لما قاله الخفاجي قبله . فلقد اشترط الخفاجي في فصاحة الكلمة أن نجد لتأليفها حسنا في السمع ومزية على غيرها ، وإن تساوت هذه اللفظة مع غيرها في التأليف من الحروف المتباعدة^(٧٥) ولكن اللفظة قد تحسن في نظر الخفاجي بخصوصية في التأليف تتميز به على مثيلاتها المشتركة معها في المخرج البعيد ومثاله في الحروف — ع ذ ب — فإن السامع يجد لقولهم العذيب اسم موضع ، وعذبة اسم امرأة ، وعذب وعذاب وعذب وعذبات — ما لا يجد في ما يقارب هذه الألفاظ في التأليف ، وليس سبب ذلك بُعد الحروف في الخارج فقط ، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال ، لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير ، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الفصن غصنا أو فنتا أحسن من تسميته عسلوجا ، وأن أعصان البان أحسن من عسايلج الشوحط في السمع . . .^(٧٦) .

وقد يرجع حسن اللفظ في السمع في نظر الخفاجي إلى شيء آخر هو :
و التأليف المختار في اللفظة على جهة الاشتقاق ،^(٧٧) .

ويقرر الخفاجي شيئا هاما هو أن الحسن أو القبح شيء نحسه ونتركه لكننا لا نعرف أسبابه أو علله^(٧٨) ومعنى هذا أن الجمال لا يخضع في نظره لمقاييس ثابتة وإنما يرجع إلى المزاج الشخصي والتكوين النفسى للمتلقى .

ومن أمثلة الكلمات الحسنة في رأيه كلمة (تأنفت) في قول الحسين بن علي المغربي د ورعوا هثيما تأنفت روضه . . . د ومثل كلمة (تفواح) التي وردت في قول المتنبي : —

(٧٥) سر الفصاحة ص ٥٥ .

(٧٦) سر الفصاحة ص ٥٥ .

(٧٧) سر الفصاحة ص ٥٦ .

(٧٨) سر الفصاحة ص ٥٦ .

إذا سارت الأحاداج فوق نباته تفاوح مسك الغايات ورنده
ومثال الكلمات المكروهة في السمع كلمة « الجرشي » التي وردت في قول
أبي الطيب المتنبي من قصيدة له في مدح سيف الدولة :

مباركُ الاسم أغرُّ القلبُ كريمُ الجرشيَّ شريفُ النسبِ
ومثل قول زهير ابن أبي سلمى :

نَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يَكْشُرْ غِيْمَةً بنهكة ذى قربى ولا بمقلدٍ
وكلمة (حقلد) في نظر الحفاجي تزيد في القبح على كلمة « الجرشي » (٧٩) .

والحق أن ما ذكره الحفاجي عن حسن الوقع في السمع أو الكراهة في
السمع — قد أثار جدلاً كبيراً من بعده ، فلقد لخص القزويني ما قاله الحفاجي
وأتبعه بقوله : « وفيه نظر » (٨٠) أما شارحوا التلخيص فقد أوضحوا ما رأوه
من وجهات نظر .

يرى سعد الدين التفتازاني في شرحه المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني
— أن الكراهة في في السمع إنما هي من جهة الغرابة الناتجة عن الوحشية ، وكلمة
(الجرشي) في نظره مثل كلمتي (تكأ كأتتم) و (افرنقوا) (٨١) .
وقد تبعه في هذا الرأي ابن يعقوب المغربي في مواهب الفتاح في شرح
تلخيص المفتاح .

ويرى ابن يعقوب أيضاً أن حصر الكراهة في السمع في قبح النغم باطل
مردود ، لأنه لو كان كذلك فلا تكون (الجرشي) غير مكروهة في السمع
إلا عند نطق خشن الصوت ، وهذا اللفظ في نظره مقطوع بكرهته (٨٢) .

(٧٩) سر الفصاحة ص ٥٦ .

(٨٠) شروح التلخيص ص ٩٠ .

(٨١) شروح التلخيص ص ٩٢ — ص ٩٣ .

(٨٢) شروح التلخيص ص ٩٣ .

إلا أن المغربي يعمد إلى ما يقارب رأى الخفاجى وذلك عندما يرد الكراهة في السمع إلى الغرابة ، وغير الغرابة^(٨٣) ، أى أن هناك أشياء ترجع إليها الكراهة غير الغرابة .

ويرى بهاء الدين السبكي في عروس الأفراح أن الكراهة في السمع من جهة الصوت لا تتعلق لها بالفصاحة ، لأن السمع قد يستلذ بغير الفصيح بحسن الصوت وبالعكس^(٨٤) .

ويقرر السبكي شيئاً هاماً هو أن هذا القسم الذى أورده القزوينى عن سابقيه لا مكان له في فصاحة المفرد وإنما يجب أن يوضع في فصاحة الكلام ، وبناء على ذلك يرى بهاء الدين السبكي أن كلمة (الجرشى) لا كراهة فيها^(٨٥) .

ويورد السبكي رأى حازم القرطاجنى الذى يرى الكراهة في كلمة الجرشى ، ويعمل هذه الكراهة بتتابع الكسرات ، وتماثل الحروف ، وكونها حوشية^(٨٦) .

أما السيوطى فإنه يرى ما رآه سعد الدين التفتازانى ، فهو يرد الكراهة في السمع في كلمة (الجرشى) إلى الغرابة الناتجة عن كون الكلمة حوشية^(٨٧) .

ونلاحظ من خلال هذا العرض السريع لأراء البلاغيين بعد الخفاجى أنهم يقيمون اعتراضهم على شرط التخلص من الكراهة في السمع — على كلمة (الجرشى) ، فلقد انصب أكثر الحديث على هذه الكلمة ، ولم يناقشوا الكراهة نفسها ، وأرجعت الكراهة في كلمة الجرشى إلى الغرابة التى ترجع إلى الوحشية ولم يرجعوا الكراهة فيها إلى السمع والنغم لأن النغم قد يتوافر في الكلمة غير

(٨٣) شروح التلخيص ص ٩٥ .

(٨٤) شروح التلخيص ص ٩١ .

(٨٥) شروح التلخيص ص ٩١ .

(٨٦) شروح التلخيص ص ٩١ .

(٨٧) المزهج ج ١ ص ١٨٢ .

الفصيحة ، وفي رأينا أن هذا يمكن حدوثه لكنه لا يعني أننا ننسكرك الأثر المترتب على ما يسمى بالجرس المتعلق بالكلمات .

ومعنى هذا أننا لا نقول بمطلق الحسن ولا بمطلق الكراهة في السمع ، وإنما زرد ذلك إلى المقام وإلى وسيلة الأداء ، أى أن الكلمة التى قد تحسن في مقام قد تسكره في الأذن في مقام آخر ، والعكس صحيح ، كما أن الكلمة قد تحسن وقد تقيح بسبب طريقة أدائها ؛ فالقيح والحسن لا يتغلوان من النسبية ، لأن مردهما أخيراً إلى الذوق .

هـ - اعتدال الكلمة في عدد الحروف :

يرى بعض البلاغيين أن الاعتدال يكون في تجنب الكثرة فقط ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجى ، ويرى البعض أن الاعتدال يكون في تجنب الكثرة والقلة معا ، ومن هؤلاء : حازم القرطاجنى وبهاء الدين السبكى ، ويرى الخفاجى أن الكلمة متى زادت عن الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة^(٨٨) ومن الكثرة المستقبحة في نظره كلمة (مغاطيسهن) التى وردت في قول نصر بن نباتة :

وَأَيَاكُمْ أَنْ تَكْشِفُوا عَنْ رءِ وَسْكُمْ
أَلَاَ إِنَّ مَغَاطِيسَهُنَّ الذَّوَالِبُ
ومثل قول أبى تمام :

فَلَاذْرِي سِجَانٌ اخْتِيَالٌ بَعْدَمَا
كَانَتْ مَعْرَسَ عِبْرَةٍ وَنِكَالٍ
سَمُجَّتْ وَتَبَّهَا عَلَى اسْتِسْهَاجِهَا
مَا حَوْلَهَا مِنْ نَضْرَةٍ وَجَمَالٍ

ففى بيتى أبى تمام كلمتان رديتان لطولهما وكثرة حروفهما ، الكلمة الأولى (أذريجان) غير العربية ، والكلمة الثانية هى (استسهاجها) .

وكقول أبى تمام أيضا :

أَنَّهُ بِاسْتِماعِكَ محلاً يفوتُ علوهُ الطرفَ الطموحا
فكلمة (باستماعك) ظاهرة القبح في نظر الخفاجي لكثرة حروفها .
وكقوله أيضا :

اليميس تعلم أن حَوْباً وَاَتَهَا رِيحٌ إِذَا بَلَغْتَكَ إِنَّمَا لَمْ تُتَهَمَّرْ
فكلمة (حوابواتها) كثيرة الطول وهى جمع حواباء أى النفس .
وكقول المتنبي :

إِنَّ الْكَرِيمَ بِلَا كَرَامٍ مِنْهُمْ مِثْلَ الْقُلُوبِ بِلَا سُودِاَوَاتِهَا
جميع سويداء بمعنى حبة القلب .
ومثل قول أبى تمام :

وإلى محمد ابتمعثُ قصائدى ورفعت للمستشدين لوائى
ويرى الخفاجي أن مثل هذه الكلمات الطويلة قد يستدل على قببحها بأشياء
أخرى غير قببحها المائل في كثرة الحروف . (٨٩)

ويرى حازم القرطاجنى أن الطول يأتى من سببين :

١ — أن يكون بأصل الوضع في الكلمة .

٢ — أن تكون الكلمة متوسطة فتطيلها الصلة وغيرها .

ويستشهد على ذلك بكلمة (المستشدين) التى وردت في بيت أبى تمام السابق

وكلمة (أعاضهاك) التى وردت في بيت المتنبي :

خلت البلاد من الفزالة ليلها فأعاضهاك الله كى لا تحزنا

يرى حازم القرطاجنى وتبعه بهاء الدين السبكي وجلال الدين السيوطى أن
القبح قد يكون في الكثرة والقلّة معا . والثلاثى في نظر السبكي أفضل من الاحادى

والثاني : أن تكون الكلمة متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف ، فإن كانت الكلمة على حرف واحد مثل (ق) في أمر الوصل - قبحت ، وإن كانت على حرفين لم تقبح إلا بأن يليها مثلها . ، (٩٠)

يصنف حازم الكلمات على قدر أصواتها (٩١) ويراها كما يلي :

المفرط في القصر : ما كان على مقطع مقصور

والذي لم يفرط : ما كان على سبب

والمتوسط : ما كان على وتد ، أو على سبب ومقطع مقصور ، أو

على سببين .

والذي لم يفرط في الطول : ما كان على وتد وسبب .

والمفرط في الطول : ما كان على وتدين ، أو على وتد وسبب

ويشير السبكي جدلاً حول الحروف الزائدة في الكلمة ، وهل الزيادة في الحروف ترجع إليها الزيادة في المعنى . . . ؟ وهل كثرة الحروف التي تزيد المعنى تخل بالفصاحة . . . ؟

يجيب السبكي على ذلك ويرى أن تكون إحدى الكلمتين أقل من ناحية المعنى من الأخرى وهي أفصح منها لأن شروط الفصاحة الثلاثة والتي يشترط الخلوص منها لا تتعلق لها بالمعنى ، ويقصد بالشروط الثلاثة : الخلوص من التناثر ، والغرابية ، ومخالفة القياس . .

ولما يكون التفاضل بين الكلمتين اللتين لمعنى واحد ، ومن مادة واحدة فقط ، أما المادتان المستقلتان فلا تفاضل بينهما (٩٢) . فيجوز التفاضل بين (أخشوشن) و (خشن) و (اقتدر) و (قدر) .

ويستغرب السبكي رأى التنوخى صاحب الاقصى القريب ، وابن الاثير

(٩٠) عروس الافراح ص ٩١ .

(٩١) عروس الافراح ص ٩١ .

(٩٢) عروس الافراح ص ٩١ .

صاحب المثل السائر ، عندما قالوا : إن صيغة (فاعل) أبْلغ من (فاعيل) لأن اسم الفاعل لا يكون إلا بمعنى الفاعل ، والفاعل قوى ، و (فاعيل) يكون بمعنى الفاعل والمفعول ، فهو دائر بين قوى وضعيف ، وما يختص بقوى أبْلغ عما دار بين قوى وضعيف . ولأن فاعل أشمل لشموله المتمدى والقاصر .

ويحاول السبكي أن يفند ما رآه التوخى وابن الأثير ومن رأى أن زيادة الحروف لها ارتباط بزيادة المعنى بشيئين :

١ — جموع القلة أكثر حروفا من بعض جموع الكثرة ، وأقل وزن لجموع القلة يتكون من أربعة أحرف (أفعل وفعل) وهذا الوزن أكثر حروفا من (فُعل — فُعل) ، بل إن أغلب جموع الكثرة لا يتجاوز جموع القلة في عدد الحروف .

٢ — أن اسم الفاعل من الثلاثى على أربعة أحرف (فاعل) وإذا أردنا المبالغة حولناه إلى مثله في العدد وهو (فاعيل) أو أقل وهو (فاعِل) وهما صيغتان للمبالغة ، وإذا كان (فاعِل) هو الأصل فيجدر أن يقترن به حرف أو أكثر إذا أريد المبالغة أو زياد المعنى ولكتنا نجد أن (فاعِل) قد نقص في الحروف عن (فاعِل) وزاد في المعنى عليه .

ويناقض السبكي نفسه عندما يعترف بأنه لا يستطيع أن ينكر أن زيادة الحروف يتبعها زيادة في المعنى : .. وقد يجاب عن فاعيل بأننا لم ندع أن العلامة مطردة منعكسة ، ولا قلنا : إن عدم زيادة الحروف يدل على عدم زيادة المعنى ،^(٩٣) .

ويعود السبكي ليقول : إن الثلاثى أفصح من الرباعى والخامسى ، ولا ينفي هذا كون الكثير من الرباعى والخامسى فصيحاً ، فالثلاثى أفصح من الرباعى والخامسى ولكن ذلك لا يتم إلا بشروط :

١ - أن تكون الكلمتان لمعنى واحد وتكون إحداها ثلاثية والآخرى رباعية .

٢ - ألا يكون هناك مرجح لإحداها على الأخرى .

وإذا استعملت الرباعية مع توافق هذين الشرطين وتركت الثلاثية فيكون العدول عن الثلاثية عدولا عن الأفصح^(٩٤) .

ويخلص السبكي من ذلك إلى قضية هامة هي أنه ، ليس لكل معنى كلمتان فصيحة وغيرها ، فربما لا يكون للمعنى إلا كلمة فصيحة أو غير فصيحة ، ويضطر إلى استعمالها ،^(٩٥) .

ونلاحظ أن الجدل الذي أقامه السبكي حول حروف الزيادة وعلاقتها بالمعنى لا يرتبط كثيرا بهذا الشرط الذي نحن بصدده ، ومن الأجدر أن يدخل هذا الجدل فيما سنتحدث فيه في المستقبل عن (علاقة الفصاحة بعلم الدلالة) .

وشرط توسط الكلمة بين الكثرة والقلة يهدف به صيانة اللفظة عن الأثر القبيح الذي تتركه في النفس وعدم التناسب والتلاؤم بينها وبين جاراتها .

وقد تعاب الكلمة بمحبوب أخرى تصاحبها عند كثرة حروفها أو قلتها ، كالثقل على اللسان في النطق ، والوقع السمج في الأذن ، أو الغرابة الناشئة عن كونها دخيلة أو غير ذلك .

٦ - سلامة للكلمة من الابتذال :

وصيانة الكلمة من الابتذال شرط من شروط الفصاحة . ويعد الجاحظ أول من أشار إليه كما تشير إلينا النصوص ، ويعترف الخفاجي بسبق الجاحظ له في كثير مما ذهب إليه في كتاب سر الفصاحة ، يقول الجاحظ مشيدا ببلاغة

(٩٤) عروس الأفراح ص ٩٣ .

(٩٥) عروس الأفراح ص ٩٣ .

الكتاب : د . . قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا ،^(٩٦) ويقول في موضع آخر : د وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطا سوقيا ، فكذا لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا^(٩٧) .

ونراه في المواضع التي يحذر فيها بتجنب الكلمات الوحشية يحذر من الكلمات السوقية المبتذلة .

وهو ينبغي بذلك موقفا وسطا بين الوحشى والسوقى د ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ ، وشغلك في التخلص من غرائب المعانى ، وفي الاقتصاد بلاغ ، وفي التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه . . .^(٩٨) ويستدل على مدح المتوسط بقول الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وانتشار السوقية والابتذال في الالفاظ يرجع في نظر الجاحظ إلى استخفاف الناس لأقل اللغتين وأضعفها ، وهؤلاء هم العامة الذين يستعملون ما هو أقل في أصل اللغة ويدعون ما هو أظهر وأكثر .

ويشيد الجاحظ بدقة دلالة الالفاظ على معانيها في القرآن الكريم^(٩٩) ، فلم يذكر الجوع في القرآن إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر — والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك كلمة (المطر) فالقرآن الكريم لا يستخدمها إلا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الفيث . ولقد تناول الخفاجي هذا الشرط وجمع بعض الكلمات العامية والمبتذلة التي

(٩٦) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧ .

(٩٧) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٤ .

(٩٨) البيان ج ١ ص ٢٥٥ .

(٩٩) البيان ج ١ ص ٢٠ .

فقدت كثيرا من دلالتها ، ومن هذه الكلمات التي جمعها الخفاجي كلمة
(تفرعن) (١٠٠) المأخوذة عن (فرعون) لأن العامة قد تعودوا في وصفهم للإنسان
بالجبروت أن يقولوا (تفرعن فلان) ، ولقد وردت هذه الكلمة في شعر
أبي تمام :

جليلتَ والموت مبدئ حراً صفحته وقد تفرعن في أفعاله الاجلُ
ومثل كلمة (فطير) العامية المبذلة والتي وردت في بيت لأبي نصر عبد العزيز
ابن نباته :

أقام قوام الدين زينُ قناته وأنضح كى الجرح وهو فطيرُ
وكلمة (سراويلات) التي استخدمها المتنبي استخداماً سيئاً في قوله :
لأني على شغني بما في خُمْرِها لأعفُ عما في سراويلاتِها
وأقبح من كلمة (سراويلات) في الابتذال كلمة (عنب الثعلب) في
قوله أيضاً :

سُخْوِية في مخلوقِها سويداء من عنب الثعلب
ومن ذلك أيضاً قول زهير بن أبي سلمى :

وأقسمتُ جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقامُ والقملُ
وعما يعاب على أبي تمام كلمة (كيمياء) في قوله :

ليزدكَ وجداً بالسماحة ما ترى من كيمياء المجد تغن وتغنم
وكلمة الجورب في قول المتنبي :

تستغرق الكفُ فوديه ومنكبه وتكتمني منه ريحُ الجورب الخَلِيقِ

ومن ذلك أيضاً كلمة (أوجعتها) التي جاءت في بيت لصهر بن نباته :
فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى أوجعتها الأخادع

وكلمة (ذنسى) في بيت أبي تمام :

لو كان كَلَفُهَا عَبيدَ حاجةٍ يوماً لَوَنَى شَدَقًا وَجَدِيلاً
وهذه الكلمات واضحة العيب وخاصة في شعر كبار الشعراء لأنها تأتي بين
الفرر فيزداد وضوح قببحها عما لو أفردت .

ويعمل الشيخ بهاء الدين السبكي الابتذال بشيئين :

١ — أن تكون سخيفة في أصل الوضع أو سقطت وابتذلت من كثرة
استخدامها على لسان العامة .

٢ — أن تغيرها العامة عن أصلها التي وضعت له .

والأمثلة التي ذكرناها آنفا ترجع إلى السبب الأول ، ومن الكلمات التي
غيرتها العامة عن أصلها بالاستعمال كلمة (كيف) التي كانت تستخدم في الأصل
لتدل على السائر أو الترس كما ورد في قول عروة بن الورد العبسي :

قلت لقومٍ في الكنيفِ تروّحوا عشيّةً بتنا عند ماوانَ دُرّحٍ
غير أن هذه الكلمة قد انتقلت لتدل على الآبار التي تستر الحدث ، ولقد
اشتهرت بهذا المعنى ، ولذلك صارت هذه الكلمة مكروهة مبتذلة بسبب معناها
الجديد الذي انتقلت إليه .

ومثل كلمة (الدّلو) بمعنى النجم قد أصبحت مكروهة مبتذلة بسبب استعمال
الناس لها لتدل على (الدّلو) المعروف في استخراج المياه من الآبار مثلما جاءت
في قول أبي تمام :

متفجر نادمته فكأنتي للدّلو أو للسرّ ذمّينِ نديمُ

ومثل كلمة (صُرْم) التي وردت في قول أبي صخر الهذلي :

قد كان صُرْمٌ في الممات لنا فمجلت قبل الموت بالصُرْمِ

وتعاب هذه الكلمة لأن العامة قد أبدلت السين صادًا في كلمة (صرم)

بمعنى الدبر فصارت الكلمة لها نفس نطق (طـرـم) التي في بيت أبي صخر الهزلي
فقد أصابها الابتذال من هذه الجهة ومن ثم يحسن تركها .

ومن ذلك كلمة (غائط) التي وردت في قول همرو بن معد يكرب والتي
تعنى البطن من الأرض :

وكم من غائط من دون سلمى قليل الأثر ليس به كثير
ولكن هذه الكلمة أصبحت قبيحة لأن معناها قد تغير وأصبحت المفظة تدل
على شيء آخر مستقبح ومبتذل تتأفف منه النفس .

ومن الالفاظ المسكروهة أيضاً كلمة (الادبار) في قول أبي تمام ،
وعزائماً في الرّوع معتصمة ميمونة الادبار والإقبال
وكلمة (المدير) تشبه كلمة (الادبار) في قول أبي تمام أيضاً :

يضحكُن من أسف الشباب المدير يمكن من ضحكات شيب مقمر
وعما أصابه القبح أيضاً كلمة (جنابة) ، كما وردت في بيت الشريف الرضى :

سلام على الاطلال لا عن جنابة ولكن يا ساجدين لم يبق مطعم^(١٠١)

هذه كلمات قد أصابها العيب بعد الانتقال إلى معناها المبتذل ، لشيوعه
بين العامة وعلوقة بألسنتهم . كما أن الانتقال قد يجلب للكلمة القبح لكن إحدى
صيفها تظل مقبولة مثل كلمة (تصرم) ومضارعها (يتصرم) كاجاء في قوم البحرى

تَصَرَ رَمَ الدهر لا وصل فيطعمنى فيما لديك ، ولا يأس فيسلمينى

وكقول زيد بن معاوية :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وإن طال المدى يتـهـرّم^(١٠٢)

(١٠١) سر الفصاحة ص ٧٧

(١٠٢) سر الفصاحة ص ٧٧

فالمضارع والماضي في البيتين مرصيان، لكن المصدر الثلاثي قبيح في بيت الهذلي الذي ذكرناه فيما سبق .

وكما قد تقيح الكلمة بالنقل ، فإنها قد تحسن به أيضا ، فلقد نقل السبكي في عروس الأفراح والسيوطي في المزهري عن ابن النيس في كتابه الطريق إلى الفصاحة ما يفيد ذلك . . . قد تنقل الكلمة من صيغة إلى أخرى ، أو من وزن لآخر ، أو من مضى لاستقبال وبالعكس ، فتحسن بعد أن كانت قبيحة ، وبالعكس . (١٠٣)

ومن الألفاظ التي حسنت بعد النقل :

(أ) كلمة «خود» التي بمعنى أسرع ، وفي القاموس : التخويد : سرعة السير ، وهي قبيحة في نظرا بن النفس ولكن هذه الكلمة يقل قبحها — في نظره — إذا جمعت اسما «خودا» ، وهي المرأة الناحية .

(ب) وكذلك كلمة (ودع) تقيح في صيغة الماضي ، لأنها لا تستعمل إلا قليلا ، لكنها تحسن فعل أمر (دع) أو فعلا مضارعا «يدع» ، ولقد ورد المزيد بالتضعيف في الماضي من هذه المادة في قوله تعالى : « ما ودّعك ربك وما قلى » وهذا يخالف المجرد الذي رآه ابن النيس قبيحا .

(ج) ومن ذلك أيضا لفظ (اللب) بمعنى العقل ، فهو يقيح مفردا ، (١٠٤) لكنه لا يقيح جموعا كقوله تعالى « ... آيات لاولى الآلباب » ويقرر ابن النيس أن لفظ (اللب) لم يرد مفردا إلا مضافا مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من أحدكن ... » كما ورد مضافا إليه في قول جرير :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له وهنّ أضعف خلق الله أركانا
(د) وكذلك كلمة الأرجاء تحسن جموعة كقوله تعالى : « والملك على أرجائها .. » كما لا تحسن مفردة إلا مضافة مثل : رجا البئر .

(١٠٣) عروس الأفراح ص ٥٩٤ المزهري ج ١ ص ١٩٨ — ص ١٩٩ .

(١٠٤) عروس الأفراح ص ٩٤ ، المزهري ج ١ ص ١٩٨ — ص ١٩٩ .

(هـ) ومن ذلك كلمة « الاصواف » تحسن مجموعة نحو قول تعالى : « ومن أصوافها ، ولا تحسن مفردة كقول أبي تمام :

« فكأنا لبس الزمان الصوفا »

(و) وقد يحسن المفرد ويقبح الجمع مثل المصادر كلها ، وكذلك : (طيف)

و (طيوف) فتحسن الأولى ، وتقبح الثانية .

أما (بقعة) فإنها لا تحسن ، وكذلك جمعها (بقاع) فإنه لا يحسن إلا مضافا

مثل بقاع الأرض . (١٠٥)

وقضية النقل وما تؤدي إليه من آثار في اللغة ، من القضايا التي يطول الحديث فيها ، وهي لا تختص بلغة دون أخرى فهي ظاهرة تبدو واضحة في اللغات الحية ، لأن طبيعة التطور الحضارى يدفع إلى النقل أو استعمال صيغة وترك الأخرى ، ومقياس الحسن والقبح في الالفاظ لا يرتبط بسبب واحد بل تساهم عدة أسباب في ترجيح لفظة على أخرى ، وهذه الأسباب يمكن أن نوجزها فيما يأتي :

١ - ارتباط اللفظة باعتبارات دينية كما يبدو من استعمال القرآن الكريم لبعض الالفاظ ، وتفضيلها على غيرها ، فتقع تلك الالفاظ في النفس موقعا حسنا لمكانة ذلك الكتاب المقدس في نفوس الناس ، وللصياغة الفنية الرائعة لهذه الالفاظ ، والقرآن الكريم لا يجارى في روعة استخدامه للالفاظ ومدى ملاءمتها لجاراتها وذلك كما رأينا في تفضيل صيغة على أخرى ، أو استعمال الجمع وترك المفرد وغير ذلك مما فصله البلاغيون الذين أقاموا درسه على النص القرآني المعجز .

٢ - قد تحسن اللفظة لسهولة غزارجها ، فلا صعوبة في نطقها ، ولا تنافر يجهد الناطق والسامع ، ولا كثرة مذمومة في عدد أحرفها ، ولا غرابة على ناظمها و سامعها . فسهولة المخرج لحروف الكلمة ، وشيوعها على ألسنة الناطقين وآذان السامعين يجعلها مقبولة مستساغة موصوفة بالحسن والعذوبة ، وعدم توافر هذه العوامل يؤدي إلى القبح والفور .

٣ - قد تمبح بسبب ارتباطها بالمعنى القبيح أو المنفّر الذى يتأفف منه الناس وذلك مثلما يحدث عند سماع ألفاظ الروائح السكرية، والقاذورات ، وفضلات الإنسان والحيوان ، كما تمبح تلك الألفاظ المتصلة بالملابس الداخلية أو المتصلة بالجنس .

والملاحظ فى هذه الألفاظ أنها تتغير وتستبدل بغيرها ، وذلك لأن الناس يحاولون تجميل الحياة ، فيلجأون إلى تغليفها بغلالة جميلة من الألفاظ والمعانى ، لكن سرعان ما تستهلك وتخلق تلك الاغلفة ، وتبتدل ، فيلجأ الناس من جديد إلى ألفاظ أخرى جديدة لتغطى ما يشعرون به من قبح .

وتفسيرنا لهذا التغير المستمر فى تلك الألفاظ هو أنها ألفاظ متعلقة بمحاجات الإنسان وغرائزه وتلك مسائل يشترك مع الحيوان فيها ، ورغبة منه فى أن يترفع عن حيوانيته ، فإنه يتسامى بما يشعره أنه متميز فيه عن الحيوان . ونعنى بذلك الكلام أو اللغة ، فالكلام الجليل المستعذب يحمل الحياة ، وينشر السعادة والوفاء بين الناس ولائبالغ إذا قلنا : إن أكثر الخلافات التى تنشأ بين الناس يكون سببها سوء التعبير المتعمد وغير المتعمد .

ويرى السبكي أن الابتذال فى الألفاظ ليس وصفا ذاتيا ، ولا عرضا لازما - بل هو لاحق من المواقف المتعلقة بالاستعمال فى زمان دون زمان ، وصقع دون صقع .^(١٠٦) كما أننا نلاحظ أن الألفاظ التى تسقط فى مهاوى الابتذال والتى قد يشعر المثقفون نحوها بضرورة الترفع - يمكن أن تعاد إليها طلائعها ؛ ويرجع ذلك إلى الأدباء البارعين الذين يستطيعون وحدهم أن ينفذوا أو ينتشلوا تلك الألفاظ من بحر الابتذال ، وذلك باستعمالاتهم المبتكرة القريفة لتلك الألفاظ . وهذا سنشير إليه إن شاء الله فيما سنكتبه عن التغير الدلالى الذى يلحق بالألفاظ ، وهو تغير قد يكون انحطاطيا هابطا أو متساميا ، وذلك فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم المعنى أو الدلالة .

ويرى بعض الباحثين أن هناك ترتيباً لالفاظ بحسب الحسن والقبح ، وذلك مثلما فعل حازم القرطاجنى الذى رتب الالفاظ بحسب الابتدال والغرابة وما يترتب عليهما من قبح ، وبحسب الخلوص منهما وما يترتب على ذلك من حسن ، فالكلمة عنده على أقسام :

الأول : ما استعملته العرب دون المحدثين ، وكان استعمال العرب له كثيراً فى الأشعار وغيرها ، فهذا حسن فصيح .

الثانى : ما استعمله العرب قليلا ، ولم يحسن تأليفه ولا صيغته ، فهذا لا يحسن إيرادَه الثالث : ما استعمله العرب ، وخاصة المحدثين (١٠٧) دون عامتهم ، فهذا حسن جداً لانه خلص من حوشية العرب ، وابتدال العامة .

الرابع : ما كثر فى كلام العرب وخاصة المحدثين ، وعامتهم ، ولم يسكن على السنة العامة ، فلا بأس به .

الخامس : ما كان كذلك ، ولكنه كثر فى السنة العامة ، وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن ذلك ، فهذا يقبح استعماله لابتداله .

السادس : أن يكون ذلك الاسم كثيراً عند الخاصة والعامة ، وليس له اسم آخر ، وليست العامة أحوج لذكره من الخاصة ولم يكن من الأشياء التى هى أنسب بأهل المن ، فهذا لا يقبح ولا يعد مبتذلاً ، مثل لفظ الرأس والعين . السابع : أن يكون كما ذكرناه ، إلا أن حاجة العامة له أكثر ، فهو كثير الدوران بينهم كالصنائع ، فهو مبتذل .

الثامن : أن تكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى ، وقد استعملها بعض العرب نادراً لمعنى آخر ، فيجب أن يحتب هذا أيضاً .

التاسع : أن تكون العرب والعامة استعمالوها دون الخاصة ، وكان استعمال العامة لها من غير تغيير ، فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلاً ، وعلى التغيير قبيح مبتذل .

وهذه الأقسام التي ذكرها حازم القرطاجنى يمكن أن يكون ترتيبه لها مقبولا بوجه عام، لكن هذه الأقسام لا تتصف بالثبات والإطلاق وذلك لما أشرنا إليه آنفاً عن الثقل والتغير الدلالى للألفاظ سواء كان تغيرا نحو الهبوط والانحطاط أم إلى الارتفاع والارتفاع ذلك التغير الذى يرتبط فى كثير من حالاته بموقع اللفظة فى نظم العبارة وقد لا تتعالى المعنى، أو غير ما يعبر عنه النقد الحديث بتلازم الشكل المضمون . ونعود فنقول : ما موقفنا من كلمة استعملها القرآن ثم ابتدئها الناس باستعمالهم لها فى عصر من العصور . . . ؟ موقفنا فى الحقيقة مزدوج ، فالكلمة بلا شك فصيدة باستعمال القرآن لها ، لكننا نحكم عليها بالابتدال عندما تبدل بالاستعمال فوقفنا فى الحقيقة مزدوج ، ويظل ذلك الموقف مزدوجا حتى يستعملها أديب بارع ويستعملها من الابتدال .

إلى جانب هذه الشروط والشروط التى اشترطها البلاغيون فى فصاحة المفرد - نجد الخفاجى يضع شرطا آخر قد استلمه من أبى العباس المبرد كما يصرح هو بذلك هو :

٧ - خلوص الكلمة من تصغير التعظيم وتصغير الكلمة التى نطق بها العرب مصغرة :

والخفاجى يرى ما يراه أبو العباس المبرد من أن التصغير فى كلام العرب لم يدخل إلا لئلى التعظيم ، ولا فائدة من التصغير - فى نظر الخفاجى - إذا وضع للتحقير والتعظيم معا . (١٠٨) ومن أمثلة التصغير الذى ينكره الخفاجى تصغير التعظيم فى كلمة (دويمة) التى وردت فى البيت الآتى :

وكل أناس سوف يدخل بينهم دُويمة تصغر منها الانامل

وعلى هذا يحمل الخفاجى كلمة (لييلتا) الواردة فى بيت المتنبى :

أُحاد أم سداس فى أحادٍ لييلتا المنوطة بالتأدى

فتصغير التعظيم مغل بفصاحة المفرد فى نظر ابن سنان الخفاجى كما وضع فى

كلمتى (دُويمة) و (لَيْيَمَةٌ) (١٠٩)

(١٠٨) سر الفصاحة ص ٨١

(١٠٩) سر الفصاحة ص ٨١

ومن التصغير المعيب عند الخفاجي أيضا : تصغير الاسماء التي لم ينطق بها
إلا مصغرة ، مثل كلمتي (المأجنين) و (الثرثريا) فليس للتصغير فيها ما حسن
يذكر (١١٠) ولهذا عاب على المتنبي قوله :

إذا عدلوا فيها أجبت بأنة حبيبنا قلبي فوادى هياتا جهل
أما التصغير الذي يحسن في نظره هو الذي تكون فيه الكلمة قد عبر بها
عن شيء لطيف ، أو خفي ، أو قليل ، أو ما يجري مجرى ذلك ، ومن أمثلة
ذلك التصغير الذي يقع موقعا حسنا قول الشريف الرضي :

يولع الطل بردنا وقد لسمت روية العجربين الضال والسالم
فكلمة (روية) هنا حسنة ، لأنها تصغير للريح عندما تكون لسيما
مريضا ضعيفا . ومن ذلك أيضا قول أبي العلاء صاعد بن عيسى الكاتب (١١١) .
إذ لاح من برق العقيق وميضة تدق على لمح العيون الثوائم
فالتصغير في كلمة (وميضة) قد حسن ، لأن الوميضة هنا خفية تدق
على من ينظرها .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :
إذا شربت رأيت الماء فيها أذيق ليس يستره الجمران
فالماء قليل يلوح ودونه حائل من أعناق الإبل ، لذلك حسن وروده مصغرا
ومن أمثلة تصغير القلة الذي يحسن قول الشريف الرضي :
زال وأبقى عند ورائه جذيم مال عرقته الحقوق
فكلمة (جذيم) أفادت قلة المال الموروث .

ومن التصغير المختار عند الخفاجي قول المخزومي :

وغاب قُمير كنت أرجو طلوعه وروح رعيان ونوم سمر

(١١٠) سر الفصاحة ص ٨٠

(١١١) سر الفصاحة ص ٧٩

فقد جعله الشاعر هنا قيراً ، لأنه كان هلالاً غير كامل ، ويمكن الدلالة على ذلك بأن يقول : إن القمر قد غاب في أول الليل وقت نوم السمر ، والقمر إذا كان هلالاً غاب في ذلك الوقت (١١٢) .

فالتصغير الذى يقيح عند الخفاجى نوعان فقط :

١ — تصغير التعظيم .

٢ — والتصغير الذى يطرأ على الكلمة التى تنطق بها مصغرة .

وهذان النوعان محلان بفصاحة المفرد فى نظره ، أما أنواع التصغير الأخرى فإنها تحسن ، ولا تفسد فصاحة الكلمة .

وهذا الشرط قد أبرزه الخفاجى وانفرد به ، وقد استلمه من المبرد ، ولم يصنفه البلاغيون من بعده فى شروط فصاحة المفرد أو غير المفرد .

وبعد ، فهذه هى القواعد التى اشترط البلاغيون توافرها فى الكلمة المفردة حتى تتصف بالفصاحة ، وقد وجدنا أكثرهم قد اقتصر على ذكر الشروط الثلاثة الأولى وهى الخلوص من التناثر ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى ، كما أنهم قد اختلفوا فى شرط (كراهة السمع) فقد أرجعه بعضهم إلى التناثر ، كما أرجعه البعض الآخر إلى الغرابة ، كما رأينا فى كلمة (الجرشي) التى وردت فى بيت المتنبي .

وقد أضاف الخفاجى شروطاً أخرى قد استلمها من سابقيه ، كالاتذال الذى اشترط الخلوص منه وقد استلمه من الجاحظ ، وتصغير التعظيم الذى استلمه من المبرد .

ولا شك أن الخفاجى صاحب فضل كبير فيما فعله وجمعه وقسمه ، وذكره عن فصاحة المفرد .

وقواعد المفرد التى جاءت متناثرة فى كتب البلاغيين والمفويين أو صاف للذة

في جانب من جوانبها ، وهذه الأوصاف قد اجتهد علماء البلاغة واللغة لإبرازها وإخراجها كاملة ، وفي الحقيقة كانت نظرتهم قائمة على الشمول ، لأنهم قد أرادوا أن يستخلصوا قواعد عامة يمكن تطبيقها على مفردات اللغة في كل العصور لتكون شبيهة بقواعد النحو . لكن هذا المنطلق الذي قد بدأوا منه لم يكن كافيا ، لأن النظرة إلى الدرس اللغوي في النحو والصرف تختلف عن نظرة الدرس البلاغي إلى اللغة ، ومن الواجب أن يكمل كل منهما الآخر ، فالبلاغة — وهي فن القول — تقوم على التركيب ، أما النحو فإنه يقوم على التحليل ، وهذا التكامل يجب أن يكون في اعتبار الدارسين عند البحث اللغوي .

ويمكن أن نوضح شيئا من ذلك فيما نحن بصدده الآن ، ففصاحة المفرد قد حددها البلاغيون بشروط قد أصبحت قوالب وأشكالا جامدة ، فتنافر الحروف مثلا شرط قد وضعه البلاغيون ، لكنهم لم ينظروا إلى التنافر نظرة لها ارتباط بالناحية المعنوية والجمالية ، بل إنهم عندما أرادوا تفسير التنافر لم يفسروه تفسيراً دقيقاً ، فلقد أرجعوه إلى مطلق القرب أو البعد في المخارج ، وقد تصدق نظرتهم العامة إلى التنافر ، لكن الدراسات الصوتية الحديثة قد أوضحت أشياء كثيرة بما لها من إمكانات ، وسنفضل ذلك في الفصل الذي سنتناوله عن علاقة الأصوات اللغوية بالفصاحة .

كما أن التنافر الذي حذر منه البلاغيون قديما له دلالة جمالية في نظر المحدثين الذين يرون في كثير من شواهد حكاية صوتية تتلاءم مع معانيها ، ومع أننا نتناول العلاقة بين التنافر والحكاية الصوتية بحذر إلا أن هذا لا يمنع من وجودها ، ووجود المقتنعين بها اقتناعا تاما (١١٣) .

(١١٣) انظر ما كتبه الدكتور محمد النويهي في تطبيقاته للحكاية للصوتية على الشعر الجاهلي في كتابه : الشعر الجاهلي — الجزء الأول .

أما الغرابة فلا ينبغي أن ينظر إليها نظرة مطلقة لأن ما هو غريب علينا اليوم لم يكن كذلك في عصر آخر ، وما نراه اليوم فصيحاً قد يوصف بالغرابة عند أجيال لاحقة ، ولقد استطاع البلاغيون العرب أن يدركوا ذلك بذكاء ، عندما ربطوا بين الغرابة وعدم الاستعمال ، وخاصة استعمال القرآن الكريم ، فاشتروا ورود اللفظة في القرآن الكريم حتى تنفي عنها الغرابة . ولقد قنا بتفسير الغرابة بإسهاب فيما سبق . كما أشرنا أيضاً إلى موقفنا من إطلاق الغرابة ونسبتها .

أما شرط الخلو من مخالفة القياس المفغوى فيجب أن تراعى فيه اعتبارات كثيرة تتعلق بالوجوب والجواز ، كما تتعلق أيضاً ببلغة الشعر ولغة النثر ، فما يمكن التجاوز عنه في لغة الشعر ، لا يجوز في لغة النثر ، لأن التجاوز في لغة الشعر يؤدي إلى ما يعوض عنه من قيم فنية أخرى كالنسق الموسيقي أو التصويري ، ومن ثم كانت قضية الضرائر في الشعر من القضايا التي يجب أن تعالج من جانبين : جانب لغوي وهو الجانب النحوي الصرفي وكذلك الصوتيات ، وجانب بلاغي يعالج ما يترتب على مخالفة القياس من ألوان فنية أو جمالية . أما إذا لم يتحقق من مخالفة القياس أو الضرورات الشعرية ألوان فنية جمالية فإن ذلك يؤدي في نظرنا إلى الفساد ، وكثرة المجوء إلى تلك الضرورات يدفعنا إلى الشك في قدرة الشاعر على استيعاب قواين اللغة . لذلك لا نسلّم بأن ما وقع فيه الشعراء المحدثون ضرورات شعرية ، بل هي أخطاء ، إذا لم تكن موكولة عن القدماء ، وذلك لأنها جاءت بعد عصر الاحتجاج .

• • •

ثانياً : القواعد التي يشترط وجودها في فصاحة الكلام :

رأينا فيما سبق أن كلمة (الفصاحة) وصف يطلق على المفرد مثل : كلمة فصيحة ، كما أنها وصف يطلق أيضاً على الكلام مثل قولنا : كلام فصيح . وقد اختلف البلاغيون في مرادهم بلفظة (الكلام) ، فهل المراد بها ما ليس

بكلمة . . . أو أنها قد قصد بها المركب الإسنادى فقط . . . أى أنها تشمل الكلام المفيد الذى يحسن السكوت عليه فقط . . . أو أنها تشمل أيضا الكلمات المنتظمة التى لم يكتمل معناها . . .

والملاحظ أن وصف الكلمة المفردة بالفصاحة لا إشكال فيه ولا خلاف ، وكذلك وصف المركب الإسنادى بالفصاحة ، لأنه عندئذ كلام مفيد يحسن السكوت عليه .

أما المركب غير المفيد مثل المركب الإضافى والمزجى ، وكذلك جملة الصلة ، وجملة الشرط ، وجملة الجواب — ففى ذلك آراء ثلاثة : رأى يرى أنه داخل فى الكلام مثل بيت الشعر الذى يوصف بالفصاحة مع عدم اشتماله وحده على الإفادة ، ويرد صاحب مواهب الفتاح على هذا رأى بأن وصفه بالفصاحة لا يستلزم تسميته كلاما حتى يدخل فى مسماه ، وإنما المقضى لدخول المركب غير المفيد فى الكلام أن يقال فيه مثلا : هذا كلام فصيح ، لا وصفه بالفصاحة فقط ، لأن الوصف بالفصاحة أهم من التسمية بالكلام ، والأعم لا يستلزم الاخص (١١٤) .

أما رأى الثانى وهو الأرجح أنه داخل فى فصاحة المفرد ، وأن انصافه بالفصاحة يكون باعتبار فصاحة المفردات ، وسبب ذلك أن الكلام إذا أطلق فإنه ينصرف للمفيد . . . ، فيكون مقابله ما ليس كذلك ، وبذلك يدخل فى المفرد المركب غير المفيد . ويبدو ذلك واضحا إذا نظرنا إلى ما يقابل المفرد ، فإننا نرى المثنى والجمع من الناحية العددية ، ونرى المركب من الناحية اللفظية ، كما نرى الكلام فى مقابله المفرد من الناحية المعنوية ، ويرى سعد الدين التفتازانى أن مقابله بالكلام قرينة دالة على أنه أريد به المعنى الأخير أى ما ليس بكلام (١١٥) .

(١١٤) مواهب الفتاح فى شرح وتلخيص المفتاح لابن يعقوب

المغربى ص ٧١ .

(١١٥) مختصر السعد التفتازانى على تلخيص المفتاح للقرطوبى ص ٧٢ .

أما رأى الثالث فهو رأى بهاء الدين السبكي الذى يرى أن هذه الأنواع من التراكيب قد خرجت عن المفرد ولم تدخل فى الكلام ، ويرى السبكي (١١٦) أنه من الأفضل أن تستبدل كلمة (الكلام) بكلمة (المركب) لأن المركب يشمل المفيد وغير المفيد .

وفصاحة الكلام التى نحن بصدد الحديث عن قواعدها تقصد بها فصاحة الكلام المفيد الذى يحسن السكوت عليه ، لأننا نرى أن فصاحة المركب غير الإسنادى متضمنة فى فصاحة المفرد من ناحية ، وفى فصاحة الكلام من ناحية أخرى ، فالحديث عن فصاحة المفرد وفصاحة الكلام يغطى فصاحة المركب غير الإسنادى . وسنتناول الآن القواعد التى اشترط البلاغيون توافرها فى الكلام حتى يوصف بالفصاحة ، وهذه الشروط لابد أن تكون مصحوبة بفصاحة المفرد . واقتد شرط القزوينى ثلاثة شروط مضافة إلى فصاحة المفرد ، لكن شراح التلخيص قد أضافوا شروطا أخرى قد جمعوها عن الذين سبقوه وسنوضح ذلك فيما بعد . وسنورد قواعد فصاحة الكلام مفصلة كما يلي : —

١ - خلوص الكلام من ضعف التأليف :

والمراد بالضعف هنا أن يكون الكلام جاريا فى تركيبه على خلاف القانون المشهور عند جمهور النحويين ، وإن كان بعضهم يجوز ذلك التركيب . ومن أمثلة الضعف التى توقف عندها البلاغيون والنحاة — رجوع التضمير إلى التأخر لفظا ورتبة مثل : (ضرب غلامه زيدا) .

وقد اختلف فى جواز ذلك ، ويرى جمهور النحويين أن ذلك ممتنع ، وتوضيح العملة فى امتناعه أنهم اعتبروا الغلام هو الضارب ، فقد ذكر ضمير زيد قبل أن يذكر لفظ (زيد) حقيقة وتقديرا ، لأنه فى رتبة التأخير لكونه مفعولا ، ولم يذكر معناه ، وليس فى حكم المذكور ، ولذلك اعتبر هذا التأليف ضعيفا .

لكن هذا جائز في حالة كون زيد فاعلا مثل: (ضربُ غلامهُ زيدُ) فزيد هنا في تقدير التقديم . ولا ضعف هنا .

وتوجد حالات أخرى يجوز فيها عودة الضمير على المأخر مثل :
الإضمار بعد ذكر ما يتضمن معناه كقوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى »
فان الضمير عائد إلى العدل المفهوم من كلمة (اعدلوا) . ومثل ذلك أيضا :
« جَزَى رَبُّهُ عَدَىَّ بَن حَاتِمٍ جَزَاءَ السَّكَلَابِ الْعَاوِيَاتِ » وقد فعل
فان الضمير هنا عائد إلى مصدر جزی .

ويجوز الإضمار أيضا قبل ما لم يذكر لفظه ويكون في حكم المذكور (١١٧) .
ويكون ذلك بأن لا يتقدم ما يدل على معناه ، ولا يتقدم لفظه صريحا أو تقديرا
مع وجود إمكانية في الإضمار ؛ كالإبهام ثم البيان ليمكن في ذهن السامع عند اقتضاء
المقام ، ويتضح ذلك في ضمير الشأن مثل : (هو زيد قائم) . كما يتضح أيضا في
ضمير رب كقول الشاعر :

ربه فتية دعوت إلى ما يورث الحمد دائما فأجابوا
ومن الضعف أيضا في نظر المفاجى تغير الكنايات ، وعدول الضمائر عن
النسق (١١٨) كما في قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

فتاتان أمّا منهما فشيبة الـ هلال وأخرى منهما تشبه الشمس
فتاتان بالنجم السعيد ولدتما ولم تلقيا يوما هوانا ولا نحسا
في قوله ولدتما انتقال من الغيبة إلى الخطاب ، وكان من الواجب عليه أن
يقول (ولدتا) ، وهذا التغير جعل الكلام الثاني كالمقطع عن الأول .

وشبيه بهذين البيتين بيت أبي الطيب المتنبي :
قومٌ نفرست المنايا فيكمُ فرأت لكم في الحرب صبر كرام

(١١٧) مواهب الفتاح ص ٩٩ .

(١١٨) سر الفصاحة ص ٩٨ .

ووجه القول أن يقول : قوم تفرست المنايا فيهم فرأت لهم .

وقد رأينا فيما سبق أن الحفاجي قد اشترط في فصاحة الكلمة المفردة كون الكلمة خالية عما ينكره أهل اللغة وما يرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة ، ولكن الحفاجي قد ذكر خلال ذلك وجوها تصالح لأن تصنف في الشرط الذي نحن بصدده أي خلوص الكلام من ضعف التأليف ومن ذلك حذف حركة الإعراب التي بها تظهر وظيفة الكلمة في الجملة مثل امرئ القيس ابن حجر :

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا واغلر
غذف حركة إعراب كلمة مفردة لا يتعلق بها فقط، وإنما يتعلق بها وبجاراتها
عما قد يترتب عليه خلال أو تعقيد في المعنى .

ويرى الشيخ بهاء الدين السبكي أن الضعف ربما كان في النثر دون الشعر لأن ضرورة الشعر كما تجيز ما ليس بجائز فقد تقوى ما هو ضعيف ، فعلى البياني أن يعتبر ذلك فربما كان الشيء فصيحاً في الشعر ، غير فصيح في النثر ، ولذلك يجوز جماعة (ضرب غلامه زيدا) في الشعر فقط ، وابن مالك هو المجوز لهذا في النثر (١١٩) .

ووجوه الضعف التي اشترط البلاغيون خلوص الكلام منها حتى يصبح فصيحاً — كثيرة ومنشورة في كتب اللغة ، وفي دواوين الشعراء وخاصة أولئك الشعراء الذين كانوا يتعمدون كسر البناء مثل المتنبي وأبي تمام ، ولقد اهتم النقاد بتتبع شعرهم وما فيه من مأخذ قد كثرت الجدل في تفسيرها .

وشرط ضعف التأليف الذي اشترطه البلاغيون خلوص الكلام منه لا يتعلق

بقضايا النحو فقط ، بل يمتداه إلى قضايا بلاغية ونقدية ، وأهم تلك القضايا ما يتعلق بالوضوح والإبهام ، ونحن قد بينّا فيما سبق أن الإبانة والوضوح يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الفصاحة ، فالكلام الذى يشجع فيه الغموض يؤدى إلى عدم الفهم أو سوء الفهم ، وهذا لا يتحقق مع الهدف الذى يسعى الكلام الفصيح إلى تحقيقه ، وهو الفهم والإفهام بالكلام الصريح الذى خلاص عما يفوقه نطقاً وكتابة ، المطابق لقوانين اللغة .

واللغة العربية التى تعتمد على الإعراب ، لا تُعرَفُ وظائف الكلمات بها إلا عن طريق الإعراب الذى يثبّت علامات تدل على أركانه ، وعن طريق تلك العلامات التى توضح وظائف الألفاظ والجل — يتحقق الفهم السليم للمعاني . أما إذا اختلفت علامات الإعراب عما هو معروف فى قوانين النحو ، فإن المعانى لا بد أن تتغير تبعاً لذلك ، وهذا التغير يؤدى قطعاً إلى خلط المعانى وسوء الفهم .

وهذا يخالف ما نراه فى اللغات التى تخلصت من الإعراب ، فإن وظائف الكلمات فى تلك اللغات تعرف بمواضعها داخل الجمل ، وتعرف بمعانيها تبعاً لذلك .

فضعف التأليف له علاقة وثيقة بالغموض والإبهام الذى يؤدى إلى التعقيد الذى منفصل الحديث عنه فيما سياتى إن شاء الله .

وضعف التأليف يؤدى إلى التعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى ، والفصاحة تستهدف وضوح المعنى لتحقيق الفهم والإفهام ، ومن أجل ذلك تراعى بساطة التركيب حتى تتلائم مع معانيها بسهولة .

ونستطيع أن نفسر ضعف التأليف بشيئين اثنين هما :

- ١ - أن يكون المعنى الذى يريد المتكلم أن يعبر عنه غير واضح فى ذهن صاحبه ، وعندما يعبر عنه يلجأ إلى تراكيب لا تؤدى المعنى المراد .
 - ٢ - أن تكون مقدرة المتكلم أو الكاتب فى الناحية اللغوية غير كاملة ، فيلجأ إلى التعبير عن معانيه بتراكيب يعتقد أنها صحيحة ، لكنها فى حقيقة الأمر ضعيفة أو غير صحيحة .
- فراعاة قواعد اللغة أمر ضرورى عند نظم الكلام حتى تتضح معانيه التى يستهدف إيصالها إلى السامع أو القارئ ، ولقد أصاب البلاغيون عندما اشتروا هذا الشرط فى فصاحة الكلام .
- وسوضح - إن شاء الله - ما يترتب على الضعف من نتائج كالغموض أو التعقيد بنوعيه .

٣ - خلوصه من تنافر الكلمات :

والجماحظ أول من فصل القول فى تنافر الكلمات وأثره ، ويرى أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

وينقل الجماحظ إحساس الشعراء والرواة بكراهة تنافر الكلمات ، ووصفهم للكلام المتنافر بأنه كأولاد العَلَائَات وكبعر الكبش ، كالببت الذى أورده عن خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد عَلامَةٍ يكذبُ لسان الناطق المتحفَّظ
وكبيت أبي البَيْدَاءِ الرِّياحِيَّ :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسانُ دعيٍّ فى القريض دخیل (١٢٠)

ومن أمثلة الالفاظ المتنافرة عند العرب ذلك البيت الذى أورده الجاحظ
وذاع بين علماء البلاغة ، ولسبوه إلى الجن وهو :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قربَ قبرٍ حربٍ قبرٍ
كما أورد بيتا لأحمد بن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه :

لم يضربها ، والحمد لله ، شئ . واثنت نحو عزف نفس ذهول (١٢١)

ونقل البلاغيون البيت المنسوب إلى الجن وجملوه شاهدا على المتناهى في
الثقل ، وجعله أبو الحسن الرمانى شاهدا على المتنافر الذى هو نقيض التلاؤم —
عنده ، لأن التأليف في نظره — على ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم في الطبقة
الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا (١٢٢) .

ومثال المتلائم الذى في الطبقة الوسطى عند الرمانى الآيات التى أوردها
الجاحظ عن أبي حبة النميرى والتى عندها مثالا لما لا تتباين ألفاظه ولا تتنافر
اجزاؤه وهى :

رمتنى وسترُ الله يافى ويشها عشية آرام الكناس رميمُ
رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألا يزال يميم
ألا رب يوم لو رمتنى رميمها ولكن عهدي بالنضال قديم (١٢٣)
والمتلائم في الطبقة العليا في نظره يتمثل في القرآن الكريم كله .

(١٢١) ج ١ ص ٦٥ ، والبيت قد سبقته الآيات الآتية :

هل معين على البكا والعويل أم معز على المصاب الجليل
ميت مات وهو في ورق العيش مقيم به وظل ظليل
في عداد الموتى وفي عامر الدنيا أبو جعفر أخى وخليلى
لم يمت ميتة الوفاة ولكن مات عن كل صانع وجميل
لا أزيل الآمال بعبدك انى بعدما بالآمال حق بخيل
كم لها وقعة بباب كريم رجعت من نداء بالتعطيل

(١٢٢) ثلاث رسائل ص ٨٧ .

(١٢٣) ثلاث رسائل ص ٨٧ ، البيان ج ١ ص ٦٨ ، والبيت الثانى

محذوف من الحماسة ص ٢٦٩ .

لكن ابن سنان الخفاجي يرفض هذا التقسيم ويرى أنه قسمة فاسدة لأن التأليف في نظره على ضربين فقط : متنافر ، ومتلائم ، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسما ثالثا ، كما يكون المتنافر ما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض كما لا يفرق الخفاجي بين القرآن الكريم وفصح الكلام المختار من كلام العرب ، وأن المتأمل في كلام العرب يجد ما يضاهي القرآن في تأليفه (١٢٤) .

كما يرى الخفاجي أن هذه دعوى فاسدة من أبي الحسن الرماني ولا تثبت إعجاز القرآن ، وإنما الإعجاز في نظر الخفاجي يتمثل في صرف العرب عن معارضة ، وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك ، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمنزل عن ادعاء ماذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .. (١٢٥) .

والبيت المنسوب إلى الجن قد جمعه القزويني وغيره شاهدا على المتناهي في الثقل كما أشرنا ، فالخطيب القزويني يقسم المتنافر من الكلمات إلى قسمين : المتناهي في الثقل وما دونه . (١٢٦) .

ويفرق بهاء الدين السبكي بين التنافر الذي نتج عن تكرار الكلمة في البيت السابق وبين قوله تعالى : . . . وعلى أهم من معك . .

فكل كلمة في البيت على انفرادها خالية من التنافر ، ولكن الذي أحدث التنافر هو تكرار الحروف ، لكن تكرار الحروف في الآية - كما يرى السبكي - لا يحدث تنافرا لأن . . . في مخرجي الميم والنون وهما طرف اللسان والشفة

(١٢٤) سر الفصاحة ص ٨٨ - ص ٨٩ .

(١٢٥) سر الفصاحة ص ٨٨ - ص ٨٩ .

(١٢٦) شروح التلخيص ص ٩٦ - ص ١٠٠ .

وذلاقتهما وبوسطهما بين الضعف والقوة — ما أزال ثقل التكرار . . . (١٢٧)
ويرى ابن سنان الخفاجى أن الذى أحدث الثقل فى البيت المنسوب إلى الجن
هو أنه مبنى من حروف متقاربة ومكررة (١٢٨) .

فالملة فى التنافر عند الخفاجى — هى تقارب الحروف فى الخارج مع تكرارها
وهو بهذا يخالف ماذهب إليه الخليل وما نقله عنه أبو الحسن الرومانى من أن
التنافر يحدث من البعد الشديد فى مخارج الحروف أو القرب الشديد . . . وأما
التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد ،
وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد
كان بمنزلة مشى المتقيد لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على
اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام
والإبدال . . . (١٢٩) .

ويؤكد الخفاجى أن التنافر فى القريب فقط مستشهد ببعض الكلمات البعيدة
المخرج والى لا تنافر فيها مثل كلمة (ألم) و (أو) و (أم) وهذه الكلمات تخالف
الكلمات المبنية من مخارج متقاربة مثل (ع ح) و (س ز) ويرى الخفاجى أن
الإدغام والإبدال شاهدان على أن التنافر فى قرب الحروف دون بعدها ، لأنهما
لا يكادان يرادن فى الكلام الاقتراراً من تقارب الحروف (١٣٠) ولكن الرومانى
يرجع العلة فى الإدغام والإبدال إلى القرب والبعد مما مؤكداً بذلك ما رآه
الخليل بن أحمد .

وفى الحقيقة أن التنافر يرجع إلى ماذهب إليه الخفاجى ، أى أن قرب
مخارج الحروف مع تكرارها يحدث تنافراً فى الكلمات المنظومة . فالتنافر الذى
حدث فى البيت الآتى :

-
- (١٢٧) عروس الافراح ص ١٠٠ .
 - (١٢٨) سر الفصاحة ص ٨٨ .
 - (١٢٩) سر الفصاحة ص ٨٨ .
 - (١٣٠) سر الفصاحة ص ٩١ .

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر
 قد حدث من تكرار الكلمات المتماثلة مع تقارب مخارج حروفها .
 ومن أمثلة التكرار القبيح الذى يحدث ثقلا ، اليق الآتى :
 لو كنتُ كنتُ كنتُ الحب كنتُ كما كنا نكون ولكن ذلك لم يكن
 وقول أبى تمام الذى أنشده أمام أحمد بن أبى دؤاد .
 فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضى
 وقول أبى الطيب المتبنى :
 ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف بل مثله ألف
 وكقول المتبنى أيضا من قصيدة له فى مدح محمد بن عبد الله الخطيبى :
 العارض الحسن ابن العارض الحسن ابن العارض الحسن ابن العارض الحسن
 وكقوله أيضا من قصيدة له فى مدح الحسين بن إسحاق التوحي :
 لك الحير غيرى رام من غيرك الغنى وغيرى بغير اللاذقية لاحق
 وقوله أيضا :
 رمانى خساس الناس من صائب استه وآخر قطن من يديه الجنادل
 فقلقتُ بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيسى كلهن قلاقل
 غثائهُ عيشى أن تغث كرامتى وليس بغث أن تغث الماء كل^(١)
 وفى البيتين الآخرين قبح تتج عن شيئين : الأول تكرار الحروف داخل
 الكلمة ، والثانى تكراره للكلمة نفسها ، ويتمثل ذلك فى مادق (قلقل) ،
 و (غث) .

(١٣١) قلقت : حركت ، قلاقل العيس : النوق الخفيفة ، وقلاقل
 الثانية جمع قلقة بمعنى الحركة ، والغثاء ، الرداءة أى أن رداءة عيشه فى
 رداءة كرامته لا فى رداءة مأكله .

ومن التكرار القبيح الموجب للثقل أيضا قول مسلم بن الوليد :
 'سَأَلْتُ وَسَلْتُ ثُمَّ مَلَّ سَلِيلُهَا فَأَنَّى سَلِيلُ سَلِيلِهَا مَسْأُولًا'
 وقول امرئ القيس بن حجر :

أَلَا إِنِّي بَالٍ عَلَى جَهْلٍ بَالٍ يَقْوَدُ بِنَا بَالٍ وَيَتْبَعُنَا بَالٍ
 أما النوع الثاني من تنافر الـكلمات وهو ما ليس متاهيا في الثقل ، فهو أقل
 من النوع السابق ، ويصوره القزويني في بيت أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى ، وإذا ما لمته لمته وحدى (١٣٢)

ويرى القزويني أن الثقل قد نتج عن اجتماع الحاء مع الهاء وذلك لأن بينهما
 تنافرا ، ويخالفه بهاء الدين السبكي في ذلك ، ويرى أن اجتماع الحاء والهاء فصيح
 لوروده في القرآن الكريم في قوله تعالى : ومن الليل فسبحه .

والثقل في البيت — كما يرى السبكي — قد نتج عن التكرار للكلمة
 (أمدحه) ويورد رأى حازم القرطاجي الذي يرى أن الثقل يحدث بسبب التكرار
 في (أمدحه) وفي (لمته) .

وينقل السبكي رأيا يفرق بين وضع الحاء والهاء في البيت ووضعهما في الآية
 الكريمة : وقيل : إنما حصل الثقل عن اجتماع الحاء والهاء بعد الفتحة وليس
 ذلك في الآية الكريمة (١٣٣) .

ويرى ابن رشيق أن في بيت أبي تمام لونا من ألوان المعاظلة التي تقوم على
 تداخل الحروف وتراكيبها وذلك فيما نقل عن صاحب بن عباد عن ابن
 العميد (١٣٤) .

(١٣٢) يورد الخفاجي البيت بمعنى في الشطرين :
 كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى ومتى ما لمته لمته وحدى
 (١٣٣) عروس الافراح ص ١٠٠ — ص ١٠١ .
 (١٣٤) العمدة ج ٢ ص ٢٦٤ — ص ٢٦٥ ومثله بيت لكعب بن زهير :
 تبذرو عوارض ذوى ظلم اذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وينقل السبكي في موضع آخر عن حازم وأيا يرى فيه أن بيت أبي تمام السابق حسن : « فإنه لا سبيل إلى التعبير عن هذا المعنى إلا بالتكرار . . وكذلك كل ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالتكرار فهو حسن ، فهذا بيت تكرر فيه حروف الحلق وتكررت فيه ألفاظ ، وهو يحسن . . ، وبما لا يمكن التعبير عنه إلا بالتكرار لحسن وإن خالف فيه بعضهم قول المتنبي :

وحدانٌ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ وحارثٌ لقمانٌ ، ولقمانٌ راشدٌ (١٣٥)

ولقد سبقه الخفاجي في نفي القبح عن هذا البيت بسبب التكرار ، لأن المعنى المنفصود — في نظره لا يتم إلا بهذه الصورة والذي نفي القبح عنه أنه ذكر أجداد الممدوح على لسق واحد من غير حشو ولا تكلف لأن أبا الهيثم هو عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد .

ويرى الخفاجي أنه لو ورد هذا الكلام نثرا لم يرد إلا على هذه الصفة (١٣٦) . ويسمى ابن رشيق القيرواني هذا النوع من التكرار الذي يعتمد على تتابع الأسماء (الاطراد) والاطراد يكون في نظره صنعة حسنة إذا حدث من غير تكلف ولا حشو فارغ لأن الاطراد عندئذ يدل على قوة طبع الشاعر مثل قول الأعشى (١٣٧) .

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

ويرى ابن رشيق أن بيت المتنبي السابق فيه تمسف وتقصير ، ووضع ذلك البيت وسط بيتين من تلك القصيدة الموجهة لسيف الدولة — ليظهر القبح الذي قصد ابن رشيق إبرازه :

(١٣٥) عروس الافراح ص ١١٩ .

(١٣٦) سر الفصاحة ص ٩٢ .

(١٣٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج ٢ ص ٨٢ .

(م ١٠ - الفصاحة)

فأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
 وحمدان حمدون وحمدون حارث وحات لقمان ولقمان راشد
 أولئك أنياب الخلافة كلها وسائر أملاك البلاد الزوائد

ويرى ابن رشيقي أن الذي مقت شعره هذا تكريره كل اسم مرتين في بيت
 واحد ، وهم أربعة أسماء (١٣٨) .

وفكرة تنافر الكلمات التي تضمنتها شروط فصاحة الكلام — تسهل
 ما قيل عن التنافر المتعلق بالحروف ، لأن العوامل التي تؤدي إلى تنافر الحروف
 هي التي تؤدي أيضاً إلى تنافر الكلمات ، ومع أن القدماء قد اختلفوا في تفسير
 التنافر على نحو ما رأينا عند البلاغيين والنحويين إلا أنهم أصحاب فضل يجب
 أن يذكر لهم .

ونرى أن فكرة التنافر يجب ألا تجزأ بين الحروف والكلمات كما فعل علماء
 البلاغة ، والعلاقة بين الثقل والتنافر هي علاقة تقوم على الخصوص والعموم
 أو الجزئية والكلية ، فالثقل أعم من التنافر ، أو أن التنافر جزء من الثقل ،
 لأن الثقل قد يحدث من التنافر وغير التنافر ، كما أن كل ما هو متنافر ثقل على
 اللسان . ولو أن البلاغيين قد استبدلوا بالتنافر الثقل لكان ذلك أشمل في نظرنا .
 وبعض البلاغيين قد فصل بين الثقل والتنافر وجعلوا الخلوص من الكراهة في
 السمع شرطاً من شروط الفصاحة يغير التنافر ، كما اشترطوا اعتدال الكلمة في
 عدد حروفها ، ودان الشرطان يستهدفان الخلوص من الثقل إلى جانب التنافر ،
 فكلمة الثقل أشمل كثيراً من كلمة التنافر .

(١٣٨) العمدة ص ٨٤ : ومن النقد الذي وجهه ابن رشيقي إلى أبيات
 المتنبي هذه جعل للخلافة أنياباً وجعلها سبعة ، والأنياب المتعارف عليها
 أربعة ، وجعلها سبعة أنياب يقرّبها من صفات تمسح النبل أو الكلب مان
 أنياب كل واحد منهما ثمانية .

والخلوص من الثقل والتنافر الناتج عن التراكيب يجعل الكلام موصوفاً بالسلاسة ،
والعذوبة ، وحسن الوقع في السمع ، كل هذا وغيره مطلب هام تسعى الفصاحة
إلى تحقيقه ، والميل إلى الثقل إنما يرجع قبل كل شيء إلى الطبع الجاني ، والذوق
الخشن ، والمزاج الشاذ ، وهى عوامل مركبة فى نفس صاحبها ، وتبعده عن
الأسوياء من الناس . كل ذلك إذا كان الميل إلى الثقل إرادياً ومقصوداً .
أما إذا كان المتكلم أو الكاتب يعبرها يريد بالفاظ ثقيلة عن غير قصد فهو
يمثل أولئك الذين تنقصهم الثقافة اللغوية الواسعة التى تهيم لصاحبها فرصة انتقاء
الالفاظ التى يحلو سماعها فى الأذن ، وقد يرجع ذلك أيضاً إلى وجود ذلك
الانسان فى بيئة مغلقة .

وظاهرة التنافر ترجع إلى أشياء عديدة : منها التجاور المباشر فى مخارج
الحروف ، وكذلك عدم شيوع اللفظة على الألسنة ، وسنحاول تحليل التنافر فى
الباب الآتى — إن شاء الله — ولقد أشرنا فى فصاحة المفرد إلى ما قد ينتج عن
التنافر من حكاية للأصوات توافق معانيها مما قد يراه ويتحمس له بعض
الباحثين فى الأدب . وقضية التنافر قد يكون لها وجه من القبول لدى أولئك
الذين يغالبون الناحية الذوقية ، ونحن لا نمانع فى قبول التفسير الجمالى للتنافر
بشرط عدم إخلاله بفصاحة الكلام ، التى تعنى أيضاً عذوبة الالفاظ وسلاستها
ووقعها الحسن فى السامع .

٣ - الخلوص من التعقيد :

ويقصد بالخلوص من التعقيد أن يكون ظاهر الدلالة على المراد ، فلقد
اصطلح البلاغيون المآخرون على تفسير التعقيد بأنه ما لا يكون ظاهر الدلالة على
المراد به .

وللتعقيد سببان : أحدهما يرجع إلى اللفظ ، وهو أن يختل نظم الكلام ،
ولا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه .

والثاني ما يرجع إلى المعنى وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهره .

وهذا التقسيم هو ما أورده القزويني (١٣٩) وتبعه في ذلك شراح التلخيص وغيرهم من البلاغيين المتأخرين .

والتعقيد اللفظي :

يحدث لخلل في نظم الكلام ، وذلك بأن تكون الالفاظ على خلاف ترتيب المعاني وذلك لأسباب منها : التقديم والتأخير ، أو الحذف الموجب للفساد ، أو المطف على التوهم ، والجهر بالمجاورة ، وما شابه ذلك مع عدم وجود قرينة ظاهرة لفظاً أو معنى مع تسكته .

ويتوقف البلاغيون عند بيت منسوب الى الفرزدق ليستدلوا به على التعقيد اللفظي فيه وهو من أبيات يمدح بها ابراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان :

وما مثله في الناس إلا عملاً كَأَبُو أُمِّهِ حَيَّ يُقَارِبُهُ

يريد وما مثل ابراهيم المدوح في الناس حَيَّ يُقَارِبُهُ إلا عملاً ، وهو هشام أبو أمه ، والضمير في (أمه) للملك ، وفي (أبوه) للمدوح ، ويتمثل التعقيد في هذا البيت فيما يلي :

١ - فصل بين المبتدأ وهو (أبو أمه) والخبر وهو (أبوه) بكلمة (حَيَّ)

٢ - فصل بين المبتدأ وهو (مثله) والخبر وهو (حَيَّ) بقوله (في الناس) إلا عملاً أبو أمه .

٣ - فصل بين الموصوف وهو (حَيَّ) والصفة وهي جملة (يقاربه) بكلمة (أبوه) .

٤ — قدم المستثنى وهو (عالمكا) على المستثنى منه وهو (حى يقاربه) (١٤٠).

ويرى ابن رشيق القيروانى أن بيت الفرزدق هذا قد اشتمل على أسباب الإشكال فى الكلام جميعاً ، وهى ثلاثة عنده هى : هى التغير عن الأغلب كالقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، وإيقاع المشترك . وكل ذلك اجتمع فى بيت الفرزدق ، فالتغير عن الأغلب سوء الترتيب ، وأما سلوك الطريق الأبعد فقوله (أبو أمه أبوه) وكال يجوز أنه يقول (خاله) ، وأما المشترك فبقوله (حى يقاربه) ، لأن لفظة (حى) تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان المتصف بالحياة (١٤١) .

ومن أمثلة هذا اللون من التعقيد قول عروة بن الورد العبسى (١٤٢) :

قلت لقوم فى الكنيف تروحوا عشية بقنا عند ماوان رزح
تالوا الغنى أو تبالغوا بنفوسكم إلى مستراح من حمام مبرح

لأن تقديره : قلت لقوم رزح فى الكنيف عشية بقنا عند ماوان تروحوا تالوا الغنى و (ماوان) ماء أو قرية فى أودية العلاء بأرض الحجاز ، والروح هم المهازيل الساقطون .

(١٤٠) فى البيت اعاريب : منها ان مملكا بدل من حى قدم فانحصب وقيل (حى) بدل من (مثله) وقيل : مثله اسم ما ، ولا يصح لأنه يلزم نصب الخبر ثم الفرزدق تميمى لا يعمل ما . وأحسن من ذلك كله أن يجعل مثله فى الناس مبتدا وخبرا ، والا مملكا فى موضعه . وحى خبر ثان .
(١٤١) الممعدة ج ١ ص ٢٦٦ — ص ٢٦٧ ويذكر ابن رشيق ذلك عن الرمانى لكن هذا الذى ينسبه الى الرمانى لم يرد فى « النكت فى اعجاز القرآن » ولعله قد نقله من كتاب آخر .

(١٤٢) الأغانى يروى البيت كما يلى :

أقول لأصحاب للكنيف تروحوا عشية قلنا حول ماوان رزح

ونشأ التعقيد في هذا البيت (الاول) عن الفصل الذي حدث بين الصفة
والموصوف ، والامر وجوابه .

ومثال ذلك أيضاً قول المتنبي .

المجدُّ أخسرُ والمكارمُ صفقةٌ من أن يعيش لها الهام الاروع

وتقريره : المجد والمكارم أخسر صفقة .

ونشأ التعقيد في البيت عن التقديم والتأخير ، كما فصل بين المعطوف
والمعطوف عليه .

وكقول المتنبي أيضاً :

وفاؤكما كالربع أشجاء طاسمةُ بأن تسعدا والدمع أشقاء ساجدةُ

وتقريره : وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاء طاسمة .

ففيه فصل وتقديم وتأخير .

وكقوله أيضاً :

جفختُ وهم لا يجفخون بها هم شيمٌ على الحسب الاغر دليل

ففصل بين الفعل والفاعل (جفخت شيم) وما بينهما اعتراض .

وكقول الفرزدق :

وترى عطية ضاربا بفنائهِ ربةً مَيَّينَ بين حظائرِ الاغنام

متقلدا لايه كانت عنده أرباق صاحب ثلثة وبهام

وتقرير البيت الثاني : متقلدا أرباق ثلثة وبهام كانت لايه عنده .

ففيه تقديم وتأخير .

وكقول الفرزدق أيضاً :

فليست خراسانُ التي كان خالدُ بها أسدٌ إذ كانَ سيفاً أميرها

وتقريره : ليست خراسان بالبلدة التي كان خالد فيها سيفاً إذ كان أسد

أميرها ، ويكون رفع أسد بـكان الثانية ، وأميرها نعت له ، و (كان) تكون عند ذلك تامة لا تحتاج إلى خبر ، ولها وجه آخر هو أن يكون في (كان) ضمير الشأن ، ويكون أسد وأميرها مبتدأ وخبرا في موضع خبر الضمير . وعلى التأويلين معاً ، فلا خفاء بفتح البيت والتعسف فيه ، ووضع الالفاظ في غير موضعها . ويرى الخفاجي أن الفرزدق أكثر الشعراء استعمالاً لهذا اللون وكأنه يتعمده ويمتقد حسنه (١٤٣) .

وينقل السبكي أبياتاً في التعميد أشدها ابن الطراوة في باب ما يحتمل الشعر من الكلام على أبيات سيبويه (١٤٤) ومن هذه الأبيات :

لها مقلتا عيناء ظل خيلة من الوحش ما تنفك ترعى عرارها
أى لها مقلتا عيناء من الوحش ما تنفك ترعى خيلة ظل عرارها .
ومثله قول الفلاح :

فما من قتي كنا من الناس واحداً به نبتغى منهم عديلاً نبادله
وقول الآخر :

وما كنت أخشى الدهر إحلاس مسلم من الناس ذنباً جاءه وهو مسلماً
أى ما كنت أخشى الدهر إحلاس مسلم مسلماً من الناس ذنباً جاءه .
وأشده السكاكي بيت أبي تمام :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن كائنين ثانٍ إذ هما في الغار (١٤٥)

(١٤٣) سر الفصاحة ص ١٠٢ .

(١٤٤) عروس الافراح ص ١٠٦ .

(١٤٥) مفتاح العلوم ص ١٩٧ ي وورد هذا البيت في عروس الافراح

ص ١٠٦ كما يلي :

كائنين في كبد السماء ولم يكن كائنين ثانٍ إذ هما في الغار

وبرد في الديوان ج ٢ ص ٢٠٧ .

ثانية في كبد السماء ولم يكن لائنين ثانٍ إذ هما في الغار

ولشأ التعميد في بيت أبي تمام من إتيانه بالنصب في لفظ الخفوض (لاثنين ثان) وهذه لغة للعرب عند الفراء . كما نشأ أيضاً عن فساد المعنى ، ومعنى البيت أن الرجل الذي قتل وهو (مازيَار) ثان للآخر . والرجلان مذمومان أما اللذان كانا في الغار فمما محمودان .

ومن الممكن ألا تكون هناك ضرورة إذا أثبت التنوين في (ثان) وأقيمت عليه حركة الهمزة في (إذ) وهذا مذهب ورش في القراءة ^(١٤٦) (ثَانِيذ) . وهل يعني هذا أنه يمكن أن نستغنى عن التعميد اللفظي بضعف التأليف ، أو نستغنى عن ضعف التأليف بالتعميد اللفظي . . . ؟

يرى الشيخ بهاء الدين أن أحدهما لا يغنى عن الآخر ^(١٤٧) لأن التعميد قد يكون لاعن ضعف تأليف ، كما أنه قد ينشأ أحياناً عن ضعف في التأليف كما في : (ضرب غلامه زيداً) لأنه يؤهم عودة الضمير على غير زيد . وقد يحدث الضعف بلا تعقيد وقد يحدث التعميد من أشياء كلها جائزة إذا اجتمعت أو جبت صعوبة في الفهم مثل تقديم المستثنى ، وتقديم المفعول ، وتأخير المبتدأ ، لأن مناط التعميد هو صعوبة الفهم ، وللطبع دور كبير في ذلك .

هذه بعض النماذج والصور للتعميد الذي يتعلق بنظم الألفاظ . .

التعميد المعنوي :

هو ما كان الانتقال من معناه الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد غير ظاهر ، ولا يستطيع فهمه من أو وهلة بسبب الانتقال الذي حدث بالكناية أو الاستعاره أو المجاز .

وقد توقف البلاغيون المتأخرون عند بيت للعباس بن الأحف ليبينوا ما ما فيه من تعقيد معنوي ناتج عن الانتقال وهو قوله :

(١٤٦) ديوان أبي تمام ج ٢ ص ٢٠٧ .

(١٤٧) عروس الأفراح ص ١٠٥ .

سأطلبُ عند الدارِ عنكم لتقربوا وتمسك عيناى الدموع لتجمدا

ويسكاد يجمع البلاغيون المتأخرون ^(١٤٨) على أن العباس بن الاحنف قد أصاب حين كنى عن حزنه بسكب الدموع لما فعله الفراق فى نفسه .

أما التعقيد فى البيت فإن يمثلى فى خطائه عندما أرد أن يكنى عما يوجهه التلاقى من السرور بممود العين ، لظنه أن الجمود وخلق العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شىء آخر يجاب السرور والراحة وهذا خطأ ؛ لأن الجمود خلق العين من البكاء ، وفى حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة بل كناية عن البخل ، ويستشهد القزوينى على أن جود العين يراد به البخل بيت لآبى العطاء يرثى به ابن هبيرة :

ألا إن عيناى لم تتجدد يوم واسط عليك بحجارى دمعها الجمود

يؤكد القزوينى فكرته قائلاً : « ولو كان الجود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حالة المسرة لجاز أن يُدعى به للرجل فيقال : لازالت عينك جامدة ، كما يقال لا أبكى الله عينك ، وذلك بما لا يشك فى بطلانه ، وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة جاد لامطر فيها ، وناقة جاد لآلبن لها ، فكما لا تجعل السنة والناقة جادا إلا على معنى أن السنة بخيلة بالفطر ، والناقة لا تسخو بالدر ، لا تجعل العين جودا إلا وهناك ما يقتضى إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بسكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت وإذا لم تباك مسيبة موصوفة بأنها قد ضنت ، ^(١٤٩) .

وهذا الخلل الموجود فى بيت العباس بن الاحنف قد أدى إلى التعقيد الذى

(١٤٨) هذا ما ذكره القزوينى وتبعه شراح التلخيص ، وخالفهم السبكي عندما قال : « لا حاجة الى الكناية بالبكاء ، وجاز أن يكون أراد حقيقته » أنظر شروح التلخيص ص ١٠٩ - ص ١١٠ .
(١٤٩) الايضاح على تلخيص المفتاح ص ١١٠ - ص ١١١ .

تتبع عن الانتقال من المعنى الأصلي للفظة إلى معنى آخر ملايس للأصل على وجه
 السكناية . . والسكناية في قوله (لتجمدا) بعيد عن الفهم والواجب في السكناية أن
 يكون الفهم لها سريعاً ، وأن تكون قريبة مما تعارف عليه أهل الذوق السليم .
 والذي يؤدي إلى البطء أو عدم فهم السكناية كثرة الوسائط والقرائن غير الواضحة
 لاسكن قد تكثر الوسائط من غير صعوبة وذلك لوضوحها لدى أهل الذوق ،
 وقربها مما تعارفوا عليه مثل قولهم : (كثير الرماد) كناية عن المضيايف الكريم ،
 ففي قولهم (كثير الرماد) وسائط كثيرة ، ولـكن ما تعارف عليه أهل
 الذوق من العرب قد جعل الانتقال إلى المعنى المراد سريعاً ومدركاً بوضوح .

كما تتبع عن التعقيد في البيت محاولة البحث عن وجوه بعيدة لتوضيح مراد
 الشاعر ، ومن هذه الوجوه :

ما فسر المبرد عندما قال في تفسير هذا البيت : هذا رجل فقير يبعد عن
 أهله ، ويسافر ليحصل على ما يوجب لهم القرب ، وتسكب عيناه الدموع في بعده
 لتجمد عند وصوله لهم . ويؤكد المبرد فكرته بأشاده لهذا البيت :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

ولم يستطع المبرد بهذا التفسير أن يبعد عما توجه كلمة (تجمد) لأن
 الجمود هنا منسوب للعين . وعلى هذا يكون مقصد المبرد ، وتسكب عيناه الدموع
 في بعده لتبخل بالدموع المطلوب سكبها عند وصوله لهم . ، فالمراد لم يستطع أن
 يتخلص من دلالة و تجمد ، عندما أراد تفسير البيت من وجهة نظر أخرى ، لأن
 جمود العين قد استقر فهمه مع البخل بجزريان الدمع الذي يرجى جريانه .

ومن الوجوه الأخرى في هذا البيت ما ذكره ابن يعقوب المغربي في مواهب
 الفتاح ، ويتلخص ذلك الوجه في أن الزمان والأحبة من عاداتهم عكس المراد
 والشاعر يطلب خلاف المراد لعله يغالطهم فيأتون بالمراد . وهذا الوجه في نظر

ابن يعقوب يحسنه إظهار أن القائل يطلب مغالطة الزمان على وجه الطرافة والتلميح (١٥٠).

وهذا الوجه لا يخلو من الفساد من وجهة نظرنا لأن المغالطة قد تحدث متبادلة من الجانبين أى أن الزمان قد يغالط الشاعر فيأتى بعكس ما يرجو في الظاهر ، وفى الوقت الذى يغالط الشاعر فيه الزمان قد يأتى بعكس الظاهر من رجائه .

ويذكر ابن يعقوب المغربى وجهاً آخر فى البيت هو أن المراد بالطلب ارتكاب فعل الطالب بإظهار عدم العنبر الحاصل بالصبر ، وتوطين النفس على المكروه إلى إفادة الدموع ليحصل عن ذلك دوام السرور بدوام التلاقى ، فإن الصبر مفتاح الفرج . (١٥١)

وهذا الوجه لم يخرج شيئاً مقبولاً لقوله (لتجمدا) وإنما قد أغفل ما نوحى به من اختلافات وتمقيد . وهذا المعنى قد أشار إليه الشيخ عبد القاهر الجرجاني فى دلائل الإعجاز ، لكن عبد القاهر الجرجاني قد عاب على الشاعر كناية فى قوله (لتجمدا) ، فكأنه قال : أحزن اليوم لئلا أحزن غدا ، وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا أبدا . وغلط فيما ظن ، وذلك أن الجمود هو ألا تبكي العين ، مع أن الحال حال بسكاء ، ومع أن العين يراد منها أن تبكى ، ويستكنى من ألا تبكى .. (١٥٢)

وقد يحدث التتميد أيضا من الكلام المقلوب كقول عروه بن الورد العيسى :

فلو أنى شهدت أباسعاد غداة غد لمهجة يفوق

فديتُ بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيعُ

يريد أن يقول : فديت نفسه بنفسى .

وكقول خدّاش بن زهير :

وَرَكِبَ خَيْلٌ لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضِّيَاطِرِ ذَا الْحَمْرِ

(١٥٠) مواعب الفتح فى شرح تلخيص المفتاح ص ١١١ ، الكامل للمبرد .

(١٥١) مواعب الفتح فى شرح تلخيص المفتاح ص ١١٢ .

(١٥٢) دلائل الإعجاز ص ٢٠٧ - ص ٢٠٩ .

والضباطه هي التي تشقى بالرماح . (١٥٣) .

وكذلك قول الفرزدق :

وأطلسَ عسال وما كان صاحبا رفعتُ لنارىَ موتاً هنا فأنا

ولمّا النار هي المرفوعة .

وكقول النابغة الجعدي :

كانت فريضة ماتقول كما كان الزناء فريضة الرجم

ولمّا الرجم فريضة الزنا .

وقد ينشأ التعميد أيضا عن الاستعارات الفاسدة قول تأبط شرا :

نحزُّ رقابهم حتى صدعنا وأنفُ الموتِ متخرُّه رثيم

فجعل للموت أنفاً وصدعنا رثيماً (١٥٤) .

وكقول ذى الرمة .

يعز ضعافَ القوم عزّةُ نفسه ويقطع أنفَ الكبرياء من الكبر

فاستعار للكبرياء أنفاً ، وجعل الكبرياء يتكبر .

وكقول معقل بن خويلد الهذلي :

تخاصمُ قوما لا تلقى جوابهم وقد أخذتُ من أنفٍ لحيتك اليد

فجعل للحية أنفاً ، وقبض هذه اللحية التي لها أنف بيده كما يفعل المموم .

وكالبيت الذي نقله الخفاجي عن أستاذهم أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري (١٥٥)

إذا ذنَّ أنفُ البرد سرتم فليتهُ عقيب التثاقى كان عوقب بالجودع

فجعل للبرد أنفاً تسيل منه الرطوبة .

ومن هذه الاستعارات التي تؤدي إلى الإحالة والفساد قول أبي تمام :

لدىّ ملكٌ في أَيْكة الجود لم يرَ (١٥٦) على كبد المعروف منْ ثِيْلُهُ برد .

(١٥٣) الضباطة الضخام الاجسام الذين لا غناء عندهم . انظر

ص ١٠٤ من سر الفصاحة .

(١٥٤) من قولهم رثمت الرجل فهو رثيم : اذا ضربته فادمى .

(١٥٥) سر الفصاحة ص ١٢٨ . ذنَّ أنف البرد : سالت منه الرطوبة .

(١٥٦) في سر الفصاحة : الى ملك في أَيْكة الجود لم يزد ، ص ١٣٤ .

وكقوله أيضاً :

وما المال أحمى عنك من جيش مدحة لها عند أبواب الملوك معسكر

لها عند آذان الرواة مزامر (١٥٧) من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمز

وكقوله أيضاً :

سعى فاستنزل الشرف اقتسارا ولو لا السعى لم تكن المساعي

فاستنزال الشرف وصف بما لا يليق به من الإنزال الخفض . والمحمود في

هذا أن يقال :

« رفعت منار الشرف وشيدته » .

وكقوله :

جذبت نداء غدوة السبب جذبة فخر صريحا بين أيدي القصائد

فجعل الممدوح لا يعطيه طوعا كما جل نداء صريحا ، وهذا لا يليق في مقام

المدح .

وكقوله أيضا :

ضعفت جوانح من أذاقة النوى طعم الفراق فذم طعم العلقم

فربط بين طعم العلقم المذموم وبين ضعف الجوانح ، وليس بينهما علاقة

لأن العلقم يتعلق بحاسة الذوق .

وقد يدخل هذا أحيانا في باب المعاطلة ، وهي دخول بعض الكلام فيما ليس

من جنسه أو ما يمكن أن يطلق عليه فاحش الاستعارة .

وقد ينشأ التعقيد أيضاً من استعمال ألفاظ المدح في النظم أو ألفاظ الذم في

المدح . كقول أبي نواس :

جاء بالأموال حتى حسبه الناس حقا

وقول أبي تمام :

ما زال يهذى بالمسكارم دائباً حتى ظننا أنه محموم
وقوله :

وتشنى الحرب منه حين تغلى مراجلها بشيطان رجيم
وقوله :

ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حدث النجاء وخلفه التين
كقوله :

يا أبا جعفر جمعت فداكا فان حسن الوجوه حسن فقفاكا
كقول الحسين بن الضحاك :

كذا من يشرب الراح مع التين بالصيف

ومثل هذا كثير . ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك ما أشرنا إليه سابقاً عن السكابة وما يجب أن تكون عليه من التصريح المناسب ، والبعد عن الغموض . كما يمكن أن تصنف في التعقيد ما أشرنا إليه سابقاً في الغرابة التي تنتج عن الالفاظ الخاصة بطائفة معينة كالفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين وغيرهم . وخلاصة ذلك أن التعقيد يفسد فصاحة الكلام، وأنه ينشأ عن أشياء كثيرة، وسبب ذلك قلة الطبع وحب التكلف وعدم وضوح الفكرة في ذهن الأديب، وعدم رقي الذوق لدى المتكلم أو الكاتب، كما يرجع أيضاً إلى عدم تمكن الشاعر من أدواته التعبيرية

وإلى جانب هذه الشروط التي اشتراطها القزويني وغيره في فصاحة الكلام يوجد شروط أخرى أضيفت إلى الشرط السابقة وأهمها :

٤ - خلوص الكلام من كثرة التكرار وتتابع الإضافات :

ويستدل القزويني على كثرة التكرار ببيت أبي الطيب المتنبي في وصف فرسه :
وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها هليها شواهد

كما يستدل على تنابع الإضافات بقول ابن بابك :

حمامة جرعاً حومة الجنادل اسجعى فأتت بمراًى من سعاد ومسمع
ويرى القزوينى أن كثرة التكرار وتنابع الإضافات لا يعد شرطاً مستقلاً لأن
ذلك إن أفضى بالمفظة إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه فيما سبق
الحديث عنه فى التنافر ، وإذا لم يحصل عنه ثقل فلا ضرورة للاحتراز منهما
لأنهما لا يخلان بالفصاحة فى نظره (١٥٨) .

واعترض الشيخ بهاء الدين السبكى على ما ذكره القزوينى بأن التكرار المؤدى
إلى الثقل قد احترز عنه فى التنافر الناتج عن الكلمات المتماثلة كما فى البيت المنسوب
إلى الجن د وقبر حرب .. ، أما التنافر الذى يحصل من تنابع الإضافات فلم
يحترز عنه (١٥٩) .

وهذا فى نظرنا لا يمسوغ له أن يفرد له شرطاً مستقلاً وإنما يجب أن يوضع
فيما يوجب التنافر ، لأن التنافر قد يرجع إلى أشياء كثيرة منها تنابع الإضافات .
فالقزوينى لا يعد هذا شرطاً مستقلاً فى فصاحة الكلام ، بل ربما يكون
شرطاً فى الكلمات المتعددة التى لا إسناد بينها . ومن هذا الموقف استخلص السبكى
أن القزوينى يقصد بالكلام ما زاد عن الكلمة . وبذلك يرى القزوينى أن حديث
النبي صلى الله عليه وسلم فى وصف سيدنا يوسف عليه السلام لا خلل به بسبب
التكرار وتنابع الإضافات : .. الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم
يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم .

وهذا الحديث لا تعلق له بالإضافات ، أما التكرار الذى فيه فهو لا يرجع
إلى شيء واحد بل كل اسم يختلف معناه عن الآخر ، أما بيت المتنبي فالتكرار
فيه راجع إلى شيء واحد .

(١٥٨) شروح التلخيص ص ١١٢ - ص ١١٦ .

(١٥٩) شروح التلخيص ص ١١٦ .

والحقيقة ان التكرار قد يحسن في مواضع ، وقد يفسد في أخرى ، وقد يحدث التكرار في الالفاظ دون المعاني ، كما يحدث في المعاني دون الالفاظ ، وتكرار الالفاظ والمعاني يؤدي غالبا إلى القبح ، وقد يحسن التكرار على سبيل الاستمذاب والنشوق في الغزل والنسيب ، وفي المادح على سبيل التزيين بالممدوح ، وعلى سبيل التقرير والتوبيخ ، وعلى سبيل التعظيم — وغير ذلك .

وقد يحدث القبح في كل ذلك إذا تجاوز الحد وزاد عن الواجب كالبيت المروى عن محمد بن منذر البصري في معنى التكرير :

كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ كَمْ
قال لي : أَنْجِزَ حُرَّةَ مَا وَعَدَ
ومن التكرار المغيث أيضا ما أورده ابن رشيق القيرواني في العمدة من قول ابن الزيات :

أعزف أم تقيم على التصابي	فقد كثرت مناقلة العتاب
إذ ذكر السلوة عن التصابي	نفرت من اسمه نفر الصعاب
وكيف يلام مثلك في التصابي	وأنت فتى المجانة والشباب
سأعزف إن عزفت عن التصابي	إذا ما لاح شيب بالغراب
ألم ترني عدلت عن التصابي	فأغرنتي السلامة بالتصابي

يقول ابن رشيق معلقا على التكرار في هذه الايات : « فلا الدنيا بالتصابي ، على التصابي لعنة الله من أجله ، فقد برد به الشعر ، ولا سيما وقد جاء به كله على معنى واحد من الوزن (١٦٠) » .

ويصرح الخفاجي أن التكرار هو أكثر الاشياء قسدا في الفصاحة ، وغضا من طلاوتها ، وذلك إذا استطاع الشاعر أو الكاتب تجنبه ، ويورد أبياتا تدل على قبح التكرار ، وهذه الايات قد أوردنا بعضها عند الحديث عن التافرو من

ذلك قول مسلم بن الوليد الانصاري (١٦١) .

سلّات وسلّات ثم سلّ سليلها فأتى سليل سليلها مسلولاً
وبيت امرئ القيس :

ألا لئن بالٍ على جملٍ بالٍ يقود بنا بالٍ ويتبعنا بالٍ
ومن ذلك قول أبي الطيب :

العارضُ الهتنُ ابنُ العارضِ الهتنِ ابنُ العارضِ ابنِ العارضِ الهتنِ
وهذا البيت الذي عابه الخفاجي على أبي الطيب المنبئى على نسق ما جاء في
الحديث الشريف في وصف سيدنا يوسف عليه السلام ، أى أن كل اسم في البيت
يختلف معناه عن الآخر .

ويحاول الشيخ بهاء الدين السبكي أن يضع حدوداً ومعالم لهذا الشرط سنحاول
ترتيبها فيما يلي :

١ — أن القول بالخلوص من كثرة التكرار وتتابع الإضافات موضوعه
الخلوص منهما معا وليس كل واحد بمفرده .

٢ — أن التكرار أقل ما يصدق عليه ذكر الشيء مرتين ، فكثرة التكرار
لا تصدق بذكره ثلاثاً .

٣ — أن يكون التكرار وتتابع الإضافات في جملة وليس في جمل .

٤ — من شروط تتابع الإضافات :

(أ) أن تكون ثلاثاً فأكثر .

(ب) أن لا يكون واحد منها جزءاً أو كالجزء .

(ج) أن لا يكون المضاف إليه الاخير ضميراً .

(د) أن لا يكون فيها إضافة في علم .

وفي الحقيقة نرى التكرار مذكورا عند البلاغيين على أنه عيب محض بالفصاحة إذا أدى إلى التناثر والثقل ، والتعميد اللفظي ، كما أنه عيب في باب الإيجاز ، كما ذكر القزويني أنه عيب من عيوب الكلام في باب القصر . كما أنه يحسن في مواضع أشرنا إليها فيما سبق .

ويورد الشيخ بهاء الدين السبكي شروطا أخرى اعتبرها من فصاحة الكلام منها :

٥ - عدم تتابع الافعال :

ولا يورد السبكي أمثلة على ذلك إنما يورد مثالا في القرآن لا ينطبق على ما يذكره ويقول : وليس من ذلك قوله تعالى : « فاقتلوا منها المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم ، لتوسط الواو وتعلق كل بمفعول مع زيادات في الابتداء والانهاء .

ويبدو أن السبكي يقصد تتابع الافعال المتعمد والذي يؤدي إلى التعقيد مثل قول ابن العميشل الاعرابي (١٦٢) .

فاصدق وعف وجُدْ وَأَتَصَفِّحْ واحْتَمِلْ واصفح ودار وكاف واحلم واشجع والطف وَلِنْ وتأنَّ وارفق واتشد واحزم وجدَّ وحام واحلْ وادفع وكقول ديك الجن :

أحلْ وامرُرْ وضَرَّ وانفع وَلِنْ اخْ شِنْ وَرِشْ وابئر واتشدبْ للدعالي وكقول أبي الطيب المتنبي (١٦٣) .

أَقِلْ أُنَلْ اقطع احملْ علَّ سلَّ أَعْدُ زدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اذْنُ سُرَّ صَلْ

(١٦٢) العمدة ج ٢ ص ٣٠ ، الوساطة ص ٣٣٧ .

(١٦٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٣٧ ، ديوان المتنبي ج ٣ ص ٨٩ ، العمدة ج ٢ ص ٣٠ .

ومثل (١٦٤) .

عشر ابق اسمُ سَدُّ قَدْ بُجِدَ مَرَّانَةً رَهْ فِيهِ اسِرَةٌ لِي
غَطِر ارمِ صَبِ احمِ اغزُ رُوعُ زَعُ د لِي اثنِ بِلِ

ومثل هذه الأبيات يسميها ابن وكيع (رقية العقرب) لاحتياجها إلى الشرح لما بها من غموض ، ولعل الدافع إلى هذا التكلف هو الشغف بإظهار المهارة اللغوية فلقد استطاع المتنبي أن يجمع أربعة عشر فعلا للأمر في بيت واحد .
ومن ذلك بيت امرئ القيس الذي أورد به ثمانية أفعال ماضية ويسدو أن الشعراء قد بالغوا في محاكاة امرئ القيس فوقعوا في الفساد وبيت امرئ القيس هو (١٦٥) .

أفادَ فجَادَ ، وشَادَ فزَادَ وقَادَ فزَادَ ، وعَادَ فَأَضَلَّ

ويضيف السبكي شروطا أخرى في فصاحة الكلام لم يذكرها القزويني وهي :

٦ - عدم تناسل الصفات المترادفة :

والسبكي لم يأت بشاهد على ذلك . ومن الشواهد التي قد تصدق على ذلك قول السكيت بن زيد :

كالنَاطِقَاتِ الصَّادِقَاتِ الوَاسِقَاتِ مِنَ الذَّخَائِرِ
وكقول أبي الطيب المتنبي :

الثَّاعِمَاتِ القَاتِلَاتِ الحَيَاتِ المَبْدِيَاتِ مِنَ الدَّلَالِ غَرَائِبَا

ومما يدخل في ذلك أيضا قول المتنبي :

(١٦٤) العمدة ج ٢ ص ٣٠ - ره : من الوري أى اجعل المرض في جوف أعدائك - فه : من الوفاء . اسر : من سرى اللأيل - رع : من الروع ، زع : من وزعت أى كفتت . د : من الديه . ل : من اللولية . بل : من الوابل .
(١٦٥) الوساطة ص ٣٣٧ ، العمدة ج ٢ ص ٣١ ، شعراء النصارانية ص ٦٢ .

دانٍ بعيد ، محبةٌ مبغض ، نهيجٌ أغرٌ ، حلوٌ مر ، لئينٌ شرس
 نديٌ أبىٌ غريٌ وافيٌ أخو ثقة جعدٌ سرى نه بادراً رصاً ندس
 ومن تلك الشروط التي أوردتها السبكي (١٦٦) جملة :

٧ - كثرة الألفاظ المصغرة :

٨ - كثرة التجنيس :

٩ - كثرة الطباق .

وهذه الشروط يمكن أن تدرج في الشروط السابقة ، كالتنافر أو التعقيد اللفظي كما أن بعضها قد يدخل في فصاحة المفرد .

وهذه الشروط التي اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلام لابد أن تكون مجتمعة لأن تخلف أحد هذه الشروط يخل بالفصاحة إخلالاً بيناً ، بل إن كلاماً منها يعتمد على الآخر إلى حد كبير ، فضعف التأليف قد يؤدي إلى التعقيد الذي يفسد المعنى ، كما أن تنافر الألفاظ يؤدي أيضاً إلى التعقيد الخاص بالألفاظ ، كما تؤدي كثرة التكرار وتتابع الإضافات إلى التنافر بين الألفاظ .

فالخلاص من هذه الشروط مجتمعة يحقق الفصاحة للكلام ، وتختلف أحدها يفسد الفصاحة .

أما عن التكرار فإننا ننظر إليه من زاويتين ، زاوية الألفاظ ، وزاوية المعاني ، فالتكرار من الناحية اللفظية قد يحقق إيقاعاً موسيقياً وذلك إذا كان قائماً على وحدات متساوية من الأصوات التي اتصفت بالحسن ، أما إذا قام التكرار على أصوات أو ألفاظ توصف بالثقل أو الغرابة فإنها تؤدي إلى نتائج عكسية وهي التنافر وقبح الوقع في السامع .

ونحن نرى أن التكرار المؤدى إلى حسن الوقع في السمع بما يحدثه من إيقاعات

موسيقية مستماعة لا يعيب الفصاحة من الناحية اللفظية، كما ترى أن التكرار المؤدى إلى الثقل والتأخر بين الألفاظ — مغل بالفصاحة ويجب أن يحتجب .

أما التكرار من الناحية المعنوية فإنه يرتبط بالإيجاز والإطناب والمساواة أى بدروس استقر وضعها فى علم البيان ، والتكرار أو الترداد يرتبط ارتباطا وثيقاً بمقامات السامعين أو القارئین ، أى أنه يحسن فى مقامات ، ولا يحسن فى الأخرى ، والقرآن الكريم مثال يحتذى فى استعماله للتكرار ، فيكون الإيجاز عند مخاطبته العرب : يقول الجاحظ : « .. ورأينا الله تبارك وتعالى ، إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حمكى عنهم جملة مبسوطا ، وزاد فى الكلام . » (١٦٧)

ويقول الجاحظ فى موضع آخر عن الترداد « وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون ، وشعيب وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب ، وأصناف العجم ، وأكثرهم غبى غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهى القاب . . . » (١٦٨) .

والجاحظ يسلك نفس المسالك القرآنى فى التكرار ، فيرى أن أحاديث القصص بوجه عام لا يعيبها التكرار . كما قد سلك مسلكا تطبيقيا فى ذلك عندما حكى بعض النوادر فى كتابيه (البيان والتبيين) و (الحيوان) .

ومن ثم تتضح أمامنا محاسن التكرار وعيوبه ، فهو لا يعيب الفصاحة إذا نتج عنه إيقاع موسيقى بالألفاظ عذبة سهلة المخرج ، كما لا يعاب أيضا فى أحاديث القصص والمواعظ والخطب إذا استهدفت أغراضا بلاغية أخرى .

(١٦٧) الحيوان ج ١ ص ٩٤ .

(١٦٨) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥ .

كما يعاب إذا نتج عن وجوده تنافر وثقل في الألفاظ ، وإذا كان مقام الحديث يستوجب الإيجاز .

وهذا نستطيع أن نرى أرضاً مشتركة بين مجالات البحث في فصاحة الكلام ، ومجالات البحث البلاغى عامة ، كما يليق بنا أن نقرر في هذا المقام أن الفصاحة لا تفصل دراستها عن المعنى ؛ فالألفاظ والمعاني متلازمان في البحث الفصاحى .

وبعد ، فهذه هى الشروط التى اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلام ، ولقد اتفق المتأخرون على ثلاثة منها : هى الخلو من الضعف في التأليف ومن التنافر ومن التعقيد اللغوى والمعنوى ، واختلفوا في كثرة التكرار وتتابع الإضافات مما دفع بهاء الدين السبكي إلى وضع حدود لهذا الشرط . كما نقل شروطاً أخرى لا نستطيع إنفرادها عن الشروط السابقة لأنها تؤدي إلى نفس ما يحرص عنه لها مثل : عدم تتابع الأفعال ، وعدم تتابع الصفات المترادفة ، والخلو من كثرة الألفاظ المصغرة ، وكثرة التجنيس والطباق . وكما ذكرنا آنفاً فإن هذه الشروط يمكن أن تصنف في الشروط الثلاثة السابقة .

* * *

ثالثاً - فصاحة التكلم :

وفصاحة التكلم كما يراها القزوينى : ملكة مقصودة بلفظ فصيح ، إلا إذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه ، وقيل يقتدر بها ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتى النطق وعدمه . وقيل بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب (١٦٩) .

ويعمل السبكي سبب اختيار القزوينى للفظ ملكة ، وتركه لكلمة (صفة) لأن (الملكة) كيفية نفسانية راسخة . كما يفسر اختيار القزوينى لكلمة (يقتدر) وتركه كلمة (يعبر) لأنه لا يشترط النطق بالفعل . (١٧٠) أى أن المتكلم صاحب

(١٦٩) الايضاح ص ١٢١ .

(١٧٠) عروس الافراح ص ١٢٠ .

الملسكة فصيح ولو لم يعد أصلا . ومعناه أيضا أن من تكلم بكلام فيصح ولا
ملسكة عنده لا يعد فصيحاً .

وفي الحقيقة أن الحديث عن الملسكة قديم عند العرب بل غير العرب ، فلقد
ذكر أرسطو الموهبة الشعرية في كتابه (في الشعر) وأن الدافع إلى الشعر
في نغاره سببان هما المحاكاة وحب الموسيقى ، ويبدو أن الشعر — على العموم —
قد ولده سببان ، وأن ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية ، فإن المحاكاة
أمر فطري موجود للناس منذ الصغر ، والإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه
أكثرها محاكاة وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريق المحاكاة . . . ، وإذا كان وجود
المحاكاة لنا أمراً راجعاً إلى الطبيعة ، وكذا وجود الإيقاع والوزن وبين أن —
الاعاريض أجزءاً لا وزان — فإن من كانوا مجبولين عليها منذ البدء قد أخذوا
يرقون بها قليلاً قليلاً حتى ولدوا الشعر من الأقاويل المرتجلة ، (١٧١)

ومن أقدم النصوص العربية التي وصلت إلينا عن أهمية الملسكة في الإنتاج
أو الابتكار ما أورده الجاحظ عن عامر بن عبد قيس عندما قال : « السكامة
إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز
الآذان » (١٧٢) .

ويؤكد الجاحظ أهمية الموهبة الفطرية في الإبداع الفني في وصيته التي
يقدمها إلى ملتمس البيان في قوله : . . . وأنا أوصيك ألا تدع الناس البيان
والتيبين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ،
ويشاكلانك بعض المشاكاة ، ولقد أدرك الجاحظ المرحلة الدقيقة من الطبع ونقصد
بها التفوق في ناحية أو ناحيتين وهو ما يعرف في عصرنا باسم المهارات الفردية

(١٧١) في الشعر لأرسطو ترجمة حديثة للدكتور سكري عباد « دار
الكاتب العربي ط سنة ١٩٦٧ » ، ص ٣٧ — ص ٣٨ .
(١٧٢) البيان ج ١ ص ٨٣ .

والقدرات الخاصة وذلك عندما يقول : د . : قد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ، وتكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة ، وتكون له طبيعة في الحذاء أو التغير أو في القراءة بالألحان ، وقد تكون له طبيعة في الناي ، وليس له طبيعة في السراى وتكون له طبيعة في قصبة الراعى ، ولا تكون له في القصبتين المضمومتين ، ويكون له طبع في صناعة الملحون ، ولا يكون له طبع في غيرها ، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر ، ومثل هذا كثير جدا ، وكان عبد الحميد الأكبر ، وابن المقفع مع بلاغة أعلامهما وأسلتهما لا يستطيعان من الشعر الا ما لا يذكر مثله ، وقيل لابن المقفع في ذلك فقال : الذى أَرْضاه لا يَجْنِي والذى يَجْنِي لأَرْضاه . وهذا الفرزدق وكان مستهترا بالنساء ، وكان زير غوان ، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور مع حمده لجري وجري عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا ، (١٧٣) .

وهذا قريب مما رده ابن قتيبة بعد ذلك عندما قال : د الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يستل عليه المديح ويعتذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المرائى ويعتذر عليه الغزل وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء قال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت بانبا لا يحسن أن يمدح ، وليس هذا كما ذكره العجاج ، ولالاشل الذى ضربه بشكل ، لأن المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بان بضرب بصيرا بغيره ، ونحن نجد ذلك بعينه في أشعارهم ، فهذا ذوالرمة أحسن الناس تشبيها وأجودهم تشبيها ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خافه الطبع ، وذلك الذى أخره عن الفحول . (١٧٤) .

(١٧٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩ .

(١٧٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤ .

ولعل القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني هو أول من تحدث من الملوك
الشعرية حديثاً قريباً من مفهومها الحديث حيث فرق بينها وبين الذكاء يقول في
كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه : « وأنا أقول — أيدك الله — إن الشعر
علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة
له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ،
وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته في الإحسان ، ولست أفضل في هذه القضية بين
القديم والمحدث ، والجاهل والمخضرم ، والأعرابي والمولد ، إلا أنني أرى حاجة
المحدث إلى الرواية أمس ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه
الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب
إلا رواية .. ولا طريق للرواية إلا السمع ، وملاك الرواية الحفظ . وقد كانت
العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض كما قيل : إن زهيراً
كان راوية أوس ، وأن الخليلية راوية زهير وأن أبا ذؤيب راوية جويرية ..
غير أنها كانت بالطبع أشد ثقة واليه أكثر استئناساً وأنت تعلم أن العرب مشتركة
في اللغة واللسان وأنها سواء في المنطق والعبارة ، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء
من الفصاحة . ثم نجد الرجل منها شاعراً مقلداً ، وابن همه وجار جناحه ولصيق
طنبه بمكيئاً مفحمها ، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر والخطيب أبلغ من
الخطيب ، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحده القريحة والفتنة .. (١٧٥)

ويعود الجرجاني مرة أخرى إلى الكلام عن الطبائع واختلافها في موضع آخر
من كتاب معللاً ذلك الاختلاف بالآثار التي تتركها البيئة في نفس الشاعر : ..
وقد كان القوم يحتفلون في ذلك وتباين فيه أحوالهم فإريق شعر أحدهم ، ويصلب
شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف
الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطابع ودماثة الكلام بقدر

دمائة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم كثر الألفاظ ، معقد الكلام ، وعز الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى — وهو جاهل — أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما أهلان ، لازمة عدى الحاضرة وإبطائه الريف ، وبعده عن جلالة البدو وجفاء الأعراب . وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتميم ، والغزل المتمالك ، فإن انفقت لك الدماعة والصبابة واتصاف الطبع إلى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها (١٧٦) .

فالقديما — أذن — قد أدركوا الدور الهام للملكة في الإنتاج الأدبي ، كما أنهم لمسوا جوانب من فصاحة المتكلم ، وهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح كما حددها القزويني .

والحقيقة أن كلمة (ملكه) تساوى في مدلولها المعاصر ما أطلق عليه المحدثون (القدرات الخاصة) أو (الفروق الفردية) التي تميز بين الناس والتي تمكن الإنسان من التبوغ في ناحية معينة ، وهذه (الملكه) أو (القدرة الخاصة) لا يستغنى صاحبها عن قدر معقول من (الذكاء العام) لفصاحة المتكلم لا بد أن يتمتع صاحبها بشيئين أو بصفتين متلازمتين هما المقدرة الخاصة في هذا الجانب ، وقدر مقبول من الذكاء العام ، ولقد أشار الجرجاني إلى ما يقترب من هذا عندما تحدث عن عناصر الموهبة الشعرية ، فلقد ردها إلى الطبع والرواية والذكاء مع الدربة ، ولقد أدرك أن الطبع وحده لا يكفي كما أن الذكاء لا يغني بنفسه .

وإذا سلمنا بأن فصاحة المتكلم تنحلُّ إلى عاملين هما الذكاء العام والملكه

أو القدرة الخاصة ، فما خصائص هذه الملاسكة التي يتميز بها الفصيح من الناس ؟ ..

نرى أن الخاصة الأولى التي يتميز بها الإنسان الفصيح أن يكون متمتعا بذهن ثاقب يمكنه من تصور المعنى الذي يريد التعبير عنه تصورا واضحا ودقيقا حتى يستطيع أن يختار لمعناه اللفظ المناسب ، ونعني بالمناسب هنا اللفظ الذي لا يزيد ولا ينقص عن تأدية المعنى المراد التعبير عنه . ونستطيع أن نقول : يجب على المتكلم أن يعبر عن معناه باللفظ فصيح ، ولقد فصلنا القول — فيما سبق — في الفصيح سواء كان مفردا أم مركبا .

الميزة الثانية التي يجب أن تتوافر للفصيح المتكلم تتصل بطريقة أداء أو إلقاء هذه الالفاظ التي اختارها للتعبير عن المعنى الذي يريده ، ونعني بذلك عملية النطق وما يصاحبها من صفات تتصل بها . فقد يتفق اللفظ والمعنى عند متكلمين لكن أحدهما يفضل الآخر بما لديه من مهارات صوتية ، أو أن أحدهما يقل عن الآخر بما عنده من عيوب في النطق . ولقد وصف العرب المتكلم الفصيح بأوصاف تتصل بالآداء فقالوا : فلان طلق اللسان أى فصيح عذب المنطق . وقالوا : إنه فتيق اللسان أى فصيح بَيِّن الملهجة ، كما قالوا عنه أنه العذائق : أى فصيح اللسان بَيِّن الملهجة والحجة ، قوله الفصل . كما وصفوه بأنه منطيق وفهف ، أى حلو الكلام رطب اللسان . كما وصفوا الخطيب البارع — وهو متكلم فصيح — بأنه (مصقع) أى يأخذ في كل صقع من الكلام ، كما وصفوه بأنه (مصدع) أى لا يبالي عند من تكلم ، وأين تكلم . كما وصفوه بأنه (مفوه) و (منطيق) و (أشدق) .

ويعنى هذا أن المتكلم الفصيح يتمتع بالإضافة إلى ذكائه بأجهزة النطق السكاملة التي تمكنه من إخراج الالفاظ من الفصيحة المخرج الذي يتلاءم مع مكانتها ، ومن ثم فإن منطقه يكون خاليا من العيوب التي تصيب الاداء ، وهذه العيوب نوعان :

نوع ينشأ عن قصور في أجهزة نطق المتكلم أى أن أجهزة نطقه بها عيوب خلقية تمنعه من الاداء التكاملى للألفاظ الفصيحة .

ونوع آخر ينشأ عن سوء استعمال أجهزة النطق السليمة الكاملة أى أن العيب قد ينشأ فى تلك الحالة من الخطأ أو التكلف أو غير ذلك .

ومن أمثلة النوع الثانى (التفتّر) و (المقمقة) أى التكلم بأقصى الحلق و (التضييق) أى ملء الشدقين وتوسيعهما أثناء النطق ، ومثل (النشدق) وهو أن يلوى المتكلم شدة بكلام للتفصح وكذلك إذا فتح فمه واتسع . ومثل « التفصيح » أى التشبه بالفصحاء ، ومثل (اللثغة) و (التمتمة) و (الفأفة) أحيانا ، أى فى الحالات التى يكون العيب فيها ناتجا عن قصور غير عضوى .

ومن أمثلة النوع الاول مثل (الخنخة) أى الذى لا يبين كلامه بسبب خنخة فى خياشيمه ، وبذلك تخرج الكلمة من خياشيمه ومثل (الثغثة) وهى تنتج عن اضطراب حركه أسنان المتكلم فيه فيختلط كلامه ولا يبين أو (الثغثة) تنشأ عن سقوط الأسنان التى يسبب سقوطها ثقلا فى اللسان وخاصة عند الشيوخ ومثل : (الظأظة) وهى تنشأ عن الإهم الذى سقطت ثناياه العليا ، كما تنشأ عن الإهم الذى سقطت ثناياه العليا ، كما تنشأ عن الاعلم الذى شقت شفته العليا . من ذلك أيضا (اللثغة) وتنشأ عن عدم تمام حركة اللسان فى الكلام فيسبب عن ذلك نطق حرف آخر غير الذى يراد نطقه مثلما يحدث فى الراء التى تنطق ياء أو غينا . ومن ذلك أيضا صاحب (الحكلة) و (الحبسة) و (العقدة) وهى حالات توقف طلاقة المتكلم وتنشأ غالبا عن إلتهاء وغلظ فى اللسان .

ومن العيوب أيضا ما ينشأ عن أمراض نفسية مثل (التهمة) و (اللجلجة) و (الرتة) وكذلك (الفأفة) و (التمتمة) .

وهذه العيوب إذا خلص المتكلم منها صار فصيحاً ، وإذا حاولنا أن نبين أهم ملامح الملكة التي يتمتع بها المتكلم الفصيح فأتانا زردها إلى :

جهازة الصوت ووضوحه حتى يصل إلى أذن السامع كاملاً ، فلا يغيب منه منه كثير من خصائصه أثناء انتقاله من فم المتكلم إلى أذن السامع خلال الاثير . والهواء هو الوسط الذي يحمل الصوت برنينه ونغماته إلى المتلقي ، وهذا الوسط الناقل للصوت تتداخل معه مؤثرات مختلفة تؤثر على الصوت الضعيف ، ومن ثم فإننا نرى أن الجهازة تقوى على مغالبة المؤثرات الأخرى التي تخالط الصوت ، فلا يتقص من صفات الصوت ما يفسد الأثر المرجو منه . هذا بالإضافة إلى أن الصوت الجهوري ينم عن شخصية صاحبه القوية التي غالباً ما تؤثر في سامعيها . وجهازة الصوت تعتمد على طول وقوة شد الوترين الصوتيين وما يحيط بهما من حجم الهواء المتردد داخل تجاويف جهاز النطق ، كما تعتمد الجهازة أيضاً على قوة دفع الهواء الخارج من الرئتين كما تتأثر الجهازة بمدى صلابة أو رخاوة أعضاء النطق المختلفة ، ولما نقصد بالقوة هنا ارتفاع الصوت فقط بل أيضاً ملائمة الصوت المؤدى بدقة للمعنى المراد إبلاغه إلى ذهن السامع .

ومن ملامح هذه الملكة أيضاً الرنين ، وهو تردد الصوت خلال تجاويف أجهزة النطق ، ورنين الصوت يكون مؤثراً وجيداً كلما ائسعت تلك التجاويف التي يتردد بها الهواء ، وللرنين أثر كبير في إبراز الصوت الذي يرجى منه إيضاح المعنى ، ومن ثم فإننا نرى أن المتكلم الذي في صوته رنين أكثر تأثيراً من غيره . لأن الصوت الذي يتميز بالرنين يترك أثراً موسيقياً في أذن المتلقي ذلك الأثر الذي يرجح كفة صاحبه .

ومن ملامح تلك الملكة أيضاً قدرة صاحبها على معرفة المواضع التي يحسن فيها إبراز النبر أو الارتكاز وهي مهارة يتميز بها صاحب هذه الملكة الذي يدرك الأثر الناتج عن الملائمة بين إبراز الصوت ومعناه ، والمواقف التي تكون مناسبة

لذلك، وكذلك المواقف التي يحسن فيها التنعيم، وسنتناول دور الارتكاز Stress ودور التنعيم Intonation في الفصل الذي سنكتبه عن العلاقة بين الفصاحة وعلم الأصوات اللغوية إن شاء الله .

وهناك عوامل أخرى غير لغوية لها دور كبير في فصاحة المتكلم وهي عوامل نفسية واجتماعية ، وهذه العوامل تتصل بالمتلقى أيضا . أما ما يخص المتكلم فأهمها في رأينا — مدى تعاطف المتكلم مع الكلام المراد تأديته ومدى انفعاله به ، وهذه الناحية تخص الخطيب والممثل المسرحي أيضا، ولقد قال عامر بن عبد قيس :
 والكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (١٧٧) . .

ومن العوامل النفسية والاجتماعية أيضا قوة انتماء المتكلم إلى المستمعين، وازدياد الترابط بينه وبينهم مما يؤثر كثيرا في أدائه وانفعاله .

ومن تلك العوامل مكانة المتكلم الاجتماعية وحسن مظهره ومدى وسامته، لكن سهل بن هارون يخالف ذلك مع ما كان يتمتع به من مكانة اجتماعية وسياسية وأدبية، وما يوصف به من جمال الصورة واعتدال القامة وفصاحة اللسان ، وقد قال في ذلك : . . لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جيلا جيلا بهيا ، ولبة تاما نبلا ، وذا حسب شريفا ، وكان الآخر قليلا قبيحا ، وباذ الهينة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبل الحسيم ، وللباذ الهينة على ذى الهينة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به ، ولصار التعجب منه سببا للتعجب به ، ولصار الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ومن يئانه أياأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحسبونونه ، وظهر

منه خلاف ما قدّروا ، بضاعف حسن كلامه في صدورهم ، وكبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبعد .. والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد ، وليس لهم في الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى ، مثل الذى لهم في الغريب القليل ، وفي النادر الشاذ ، وكلّ ما كان في ملك غيرهم (١٧٨) ، .

وقد يكون رأى سهل بن هارون هذا جائزا عند العامة ، لكن العلماء والنقاد يستطيعون التخلص من الهوى وما يستهوى العامة ، ولقد تدارك سهل بن هارون هذه الحقيقة بعد ذلك عندما تكلم عن انقسام آراء الجمهور نحو كلام الخليفة أو العظيم من الناس ، وهما قسمان : قسم يدعى الكلام من التعظيم والتبجيل والاكبار بقدر مكانة قائله ، وقسم ينتقص من حق الكلام حتى يبدو أمام الناس عادلا .

ويقرر سهل بن هارون أنه « .. لا يعرف حقائق مقادير المعاني ، ومحصول حدود اطوائف الامور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الاخلاط عليم ، وإلا القوى الخفية ، الوثيق العقدة ، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الاعظم ، والسواد الأكبر (١٧٩) ، .

ومن العوامل المتعلقة بالملكية التي يتميز بها المتكلم الفصيح القدرة على استقلال الموقف وطُرُق الحديد وهو ساخن كما يقولون ؛ وهذا يتصل بما تردد عند البلاغيين عن مقتضى الحال ، والمقام والمقال ، ومراعاة حالات السامعين .

وهذه العوامل كلها تكون الملكية التي يتمتع بها الفصيح المتكلم ، وهي

(١٧٨) البيان والتبيين ص ٩٠ - ص ٩١ .

(١٧٩) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٠ .

عوامل لغوية وغير لغوية ، وكلها تساهم في تحقيق الهدف المرجو ، وهو إيصال المعنى المراد إلى ذهن السامع بصورة معينة . وهذا ينطبق على المتكلم الفصيح حتى ولو كان الكلام ليس من إبداعه ، فالخطيب الذى يلقى خطبة من إنشائه بألفاظ فصيحة ومتمتع بملكة الفصحاء هو متكلم فصيح ، وكذلك الممثل المسرحى الذى يلقى كلاما فصيحاً ليس من إنشائه إلقاء كاملاً يعد متكلماً فصيحاً ، أما مؤلف المسرحية الفصيحة نفسه لا يعد متكلماً فصيحاً إلا إذا قام بأداء أحد أدوارها أداء كاملاً .

ففصاحة المتكلم تتعلق بطريقة الاداء قبل الإلقاء الكلام لأن إنشاء الفصيح يتعلق بفصاحة الكلام وبلاغته .

وستعالج — إن شاء الله تعالى — فى الجزء التالى بعض القضايا التى أشرنا إليها فى فصاحة المتكلم بشئ من التفصيل ، ومن زاوية أخرى .. والله الموفق .